نجوم الشمال

شهادات في حق مبدعين عرب

نجوم الشمال (شهادات في حق مبدعين عرب)

محمود الريماوي (كاتب أردني/ فلسطيني)

الطبعة العربية الأولى 2022.

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، مجمع المفلح التجاري (87)، ط1. هاتف: 65620722.797162720(962+)

alaan.publish@gmail.com

alaanpublishers.com

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN:978-9923-13-481-8

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(776/ 2/ 2022)

810.9

الريماوي، محمود لطفي

نجوم الشمال: شهادات في حق مبدعين عرب/ محمود لطفي الريماوي. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(124) ص

ر. إ:776/ 2/ 2022

الواصفات: / الأدباء العرب/ / التراجم/ / الأعمال الأدبية/ / المقالات الأدبية/ / الأدب العربي/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

محمود الريماوي

نجوم الشمال

شهادات في حق مبدعين عرب

يحضرون في الكتاب

- إبراهيم أصلان
- أحمد إبراهيم الفقيه
- إلياس فركوح
- أمجد ناصر
- أمين شنار
- تيسير سبول
- خيري منصور
- رسمي أبو علي
- سعدي يوسف
- سعيد الكفراوي
- صلاح حزيّن
- غسان كنفاني
- محمد العبداللّه

على سبيل التقديم

محمود الريماوي

يضم هذا الكتاب بضع شهادات ومقالات بين قصيرة ومتوسطة الطول، تم تدوينها عقب رحيل عدد من الأدباء العرب ممن ربطت المؤلف بهم صداقات وعلاقات شخصية وثيقة، وقد نُشرت الشهادات حينها في مجلات ثقافية وصحف سيّارة. ولسائل أن يسأل أو يتساءل: لماذا جمع هذه الشهادات في كتاب؟ وهو استفهام وجيه، إذ إن هذا الأمر دار في خلد المؤلف ما إن اعتزم جمع هذه المقالات وتهيئتها للنشر في كتاب متوسط الحجم.

وفي الرد على ما تقدم، فإن المؤلف يرى أن هذه المقالات تحمل قدرا من الإضاءة لعلها كاشفة على جوانب من الشخصيات الأدبية موضع التناول في الكتاب، مما قد يفيد من لم يطّلع على أعمال هؤلاء الأدباء ذوي الأهمية في المشهد الثقافي العربي، وما قد يترتب على ذلك من تحفيز المهتمين وحتى الفضوليين لقراءة ما تيسر من أعمالهم، وبخاصة أن الشهادات أو المقالات كُتبت لجمهور عريض لا متخصص، وتتجنّب التنظير وإيراد المصطلحات الأدبية والنقدية والمسائل المفاهيمية. وفي الوقت نفسه، فإنها تنأى عن التبسيط المُخِل والانطباعات السريعة والأحكام المتعجلة، ولا تخلو من لمسات شخصية في التناول، إذ تقترن

الصداقة هنا بمحاولة الفهم، والسعي للوقوف على مدى غنى هذه الشخصيات الأدبية على مستوى شخصي وإنساني، كما على مستوى الإبداع.

والكتاب بهذا ليس كتاب مراثٍ، وليس مجرد استذكار عاطفي للراحلين، وإن كان يشتمل على شيء من هذا وذاك، إذ كُتبت معظم مقالاته في أجواء الشعور بالصدمة المريرة لرحيل من رحلوا وهم أصدقاء أعزاء، أو في حُكم الأصدقاء في أضعف الأحوال، ولغايات المتابعة الإعلامية، على أنها (وكما يحسب كاتبها) قد تمت كتابتها بعيداً عن السرعة والخفّة، ومن دون الوقوع في أسر الفقدان والتفجع، بينما تم تناول بعضهم بعد فترات غير قصيرة من غيابهم الفيزيائي، الذي لم ينتقص شيئا من حضورهم الإبداعي الذي ازداد إشعاعا، وقد تركوا سير حياتهم الغنية، وآثارهم الباقية وعبق حضورهم الفني، إذ يطمح هذا الكتاب إلى التعريف بهم وسبر أغوارهم، والمزاوجة في التناول بين سير حياتهم وإبداعاتهم الثرية باعتبارهم أشخاصاً مبدعين.. ذواتاً مبدعة، وخلاقة، وليسوا كائنات من حبر وورق، ولم تكن حياتهم موقوفة على الإبداع وحده دون سواه، وإن كان الإبداع نشاطهم الرئيس والأول في أغلب الحالات والذي قد تميزوا به وطبع أسماءهم، وهم بين شاعر وقاص وروائي وكاتب مقالات ومترجم من المُجيدين والأعلام، ومن هم في منزلة رواد في الأدب العربي الحديث، وذلك في واقع الحال هو ما يجمع ما بينهم على تفرّق أساليبهم وعوالمهم وفضاءات تخييلهم.

وإذا كان هناك من جانب ذاتي في هذا الكتاب، فهو الاعتراف بأفضالهم

على المؤلف وقد تتلمذ على عدد منهم، وربطته بهم عُرى المحبة الخالصة والاحترام التام رغم فوارق في السن وفي التجربة. واستحضار سيرهم المضيئة يتغيّا هنا أن تقف الأجيال الجديدة على بعض سمات ومكونات هؤلاء المبدعين من منظور يجتمع فيه الشخصي والعام، الذاتي والموضوعي، علاوة على التطرق إلى انشغالات ذهنية وممارسات ثقافية أخرى لبعض هؤلاء الأدباء، وقد يقع القارئ على شيء من جوانب السيرة الذاتية للمؤلف في سياق تعريفه بهذه الشخصيات التي تركت بصمات قوية لا تُمحى في حياته، كما في مسيرة أدبنا الحديث.

تبقى الإشارة إلى أن عنوان الكتاب «نجوم الشمال» مُستمد من كوكب أو نجم الشمال[1].

عسى أن يجد القارئ في الكتاب بعض الفائدة والمتعة التي تتعدى الأرشفة والتوثيق، وهما ليستا غاية هذا الكتاب، إذ كان جُل المراد صوغ شهادات شخصية بكتابة تسعى للتخفف مما هو ذاتي رغم حضوره وانبثاثه في ثنايا الشهادات، وذلك من أجل تسديد نظر موضوعي قدر الإمكان، عسى أن يكون بعض التوفيق قد حالف المؤلف في أداء هذه المهمة الجليلة.

(1) نجم الشمال يقع قريبا جداً من محور دوران الأرض حول نفسها، ولذا هو دائم الظهور ويقع في الشمال دائما، لهذا السبب كان هاما جدا لمعرفة الاتجاهات.. ورغم أن نجم الشمال الحالي لا يُعد من النجوم اللامعة، إلّا أن بالإمكان رؤيته من معظم الأماكن، بما في ذلك الكثير من المدن.

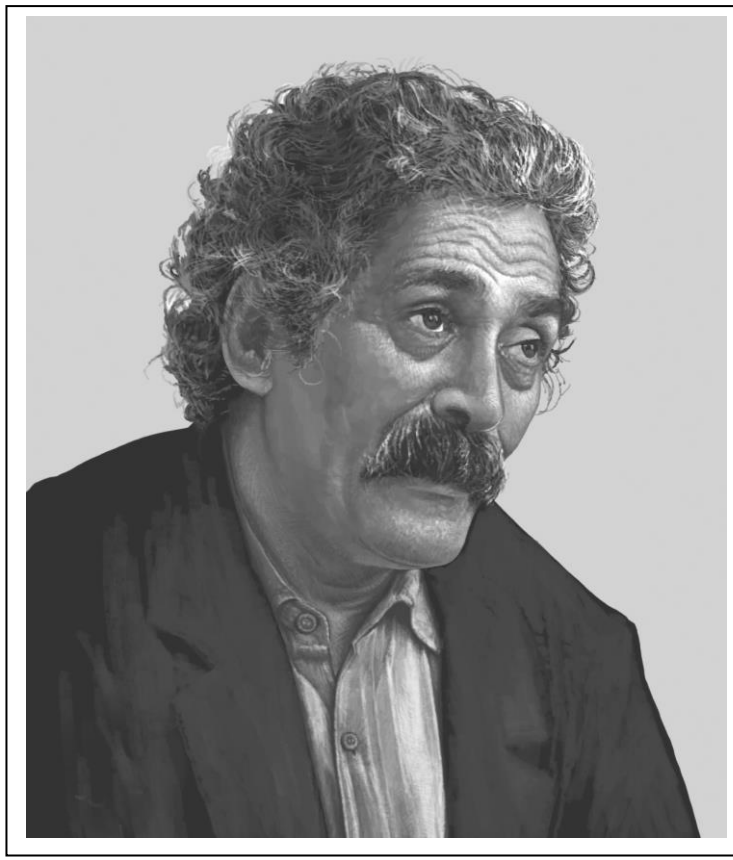

إبراهيم أصلان..
غياب النبيل

بماذا يشعر صديق حين يموت صديق له هو القاص الروائي إبراهيم أصلان؟

يشعر بصدمة الفقدان ولوعته. ثم يشعر أيضا أنه هو نفسه من يموت، وأن الحياة تغيم في ناظريه وتضمحل، كما لو أنها تموت.

منذ أزيد من سنتين عاش إبراهيم أصلان بشريانٍ واحد، فربطه بالحياة خيط واحد رفيع، لكنه جعل منه بالحنكة والمداورة خيطاً متيناً كالحرير. حين يسأله أحد عن وضعه الصحي يجيب بغير ما أسى، وعلى طريقة حواره في قصصه: أهُه. هذا ما بقي له من الحياة وسيعيشها. وقد عاشها بملء روحه وجسده النحيل.

توقف عن التدخين، لكنه كان «يجامل» صديقاً له مثل كاتب هذه الكلمات فيدخن من علبته سيجارتين أو ثلاث سجائر. يتذوقها ببطء وتركيز. وهو ما فعله وقد تجاورت جلستنا في عزاء الشاعر محمد عفيفي مطر في أحد المساجد الكبرى في القاهرة قبل أقل من عامين. كنا نتحدث من بين أمور أخرى عن الموت وغرائبه، وارتفاع كلفة مراسم التشييع والعزاء، وسوى ذلك من متعلقات الوفاة، وكان يقول من تحت شعرات شاربه الكث وهو يكتم ابتسامته: «ده اللي اسمه موت وخراب بيوت». وكان يتأمل وجوه المعزين وحركاتهم وسكناتهم، بينما يتنهد مأخوذاً بصدمة فقد صديقه وصديقنا المشترك، وكحال المبدعين في مثل هذه المواقف، فقد كان يرى في الناس حوله مشهداً قصصياً أولياً.

يشبه إبراهيم أصلان في شخصيته إيقاع قصصه إلى حد بعيد. فمقابل السرد الدقيق في إبداعه، كان متمهلاً في حديثه وردود فعله. ليس هناك من يرصده سوى عقله اليقظ وضميره الحي، الذي يمنعه من إلقاء الكلام على عواهنه، فيتأنى في إطلاق الكلمات مخافة الوقوع في الخطأ أو إثارة اللبس، فهو من صنف مصري فريد، لا يقع مزاجه في الكلام المسهب المسترسل، لكنه حين يتحدث يعطي الموضوع حقه، وفي الأثناء تنشط يده اليمنى وتبرق عيناه بالمعاني وظلالها، ويُدهشه حجم التفاهات، فيكتفي بتشخيصها وإعلان دهشته الشديدة حيالها.

سألته مرة كيف ينجح في ضبط مشاعره وكتمها خلال سرده الحيادي، الذي يمتنع فيه السارد امتناعاً تاماً عن أي تعليق أو إصدار أي أحكام من أي نوع، فأجابني وقد سرح بعيداً إنها طريقة وقد ألفها وأصبحت جزءاً منه. ولا ريب أنه كان في ذلك شيخ طريقة، لا يُدانيه فيها إلا مجايله القاص والروائي محمد البساطي.

عرفته منذ كان يسكن في الحي الشعبي «امبابة» ويعمل في قسم التلغراف (البرقيات) في البريد. لم يتغير كثيراً منذ نحو أربعين سنة، وقد انتقل بكدحه الإبداعي ونظافة كفه إلى طبقة وسطى، بعد أن نال جوائز عدة في بلده. أصبح يميل إلى الرضا، فقد أعطته الحياة بعض ما يستحق بعد طول إمساك، وتجوهرت أناقته الدمثة التي تميز مبدعين أصيلين يُحسنون اختيار قيافتهم من دون كبير عناء وبغير تقصّد. بيد أن أناقته الروحية ظلت هي الغالبة، وهي التي طبعت شخصيته التي جمعت بين التقشف والترفع، مع الإقبال بذوق مرهف على الحياة، كحال أي أرستقراطي زاهد.

اقترن اسمه كما يومياته في السنوات العشر الأخيرة، مع جاره في المقطم وزميله في الإبداع القاص سعيد الكفراوي. الكفراوي ابن بلد، ريفي، طفل في الثانية والسبعين يسعى بشهامة وطواعية لتحمل أعباء الصداقة ويتدفق حباً للحياة والآخرين، أما أصلان فمُحب ومتفهم ومتأمل، يبادل العواطف الشخصية بتأنٍّ لكن بعمق وكثافة، ويلتقيان معاً على تقييم الأمور خصوصاً الثقافية منها، ويندهشان لشبان ومكتهلين حداثيين اكتشفوا الحداثة لأول مرة بحكم السن أحياناً في أواخر القرن الماضي، ويعدّون الحداثة بدأت بهم ومعهم.

أصلان من كوكبة جيل «مجلة غاليري 68» التي صدرت بعد هزيمة 1967، وضمت الأسماء اللامعة مثل: جمال الغيطاني، إدوار الخراط، إبراهيم منصور، بهاء طاهر، غالب هلسا، محمد إبراهيم مبروك، وعبد الحكيم قاسم. وأثارت مجموعته القصصية «بحيرة المساء» أصداء واسعة. الكفراوي برز بعدئذ بقوة مع محمود الورداني في أواسط السبعينيات. مع الزمن ضاقت الفواصل بينهما وتعمقت صداقتهما وقلما افترقا. القدر ضرب ضربته وافترقا الآن.

عندما رحل -في العام 2004- إبراهيم منصور الناشط الثقافي اليساري، والناقد الشفوي سليل العائلة الأرستقراطية، تساءل صديقه أصلان: «هل تبقى القاهرة هي القاهرة بعد غيابه؟». لكم يصح هذا التساؤل الآن، بعد غياب النبيل الشفاف: عم إبراهيم أصلان.

يناير 2012

أحمد الفقيه..
الراحل في خضم المعارك

كان كاتب هذه الكلمات يستعد لكتابة مقالٍ عن ليبيا، يستكمل جوانب لم يتطرّق إليها المقال السابق «ضوء أخضر للكارثة في ليبيا»، فإذا بالنبأ الأليم لرحيل الروائي والكاتب أحمد إبراهيم الفقيه، فجر الأربعاء مطلع مايو الجاري، يثير الصدمة والشجن الكثيف. ولمّا توزّعت النفس بين الكتابة السياسية في الشأن الليبي المحتدم وتوجيه التحية إلى الراحل النبيل، فقد جرى التنبه إلى أن الكتابة عن الفقيه هي أيضا كتابة عن ليبيا، وهو أحد أسمائها الساطعة وأعلامها البارزين خلال ستة عقود، وإن كانت الجوائز والتكريمات العربية قد قفزت عنه برشاقة غزال.

لقد رحل الرجل (76 عامًا)، بالتزامن مع اشتداد النزف الليبي، وبعد مضي أربعة أسابيع على الحملة العسكرية ضد طرابلس، وضد الحلول السياسية. وغاب في الأسبوع الأخير من حياته عن صفحته في «فيسبوك»، وقد انعكست مأساة بلده وشعبه على رحيله المأساوي. وهو الذي كان يعاني من مرضٍ عضال، يتطلب انتقاله إلى مراكز طبية متقدّمة لعلاجه. ومن يشاهد مقابلة تلفزيونية أجريت معه في سبتمبر الماضي، يلحظ الإعياء والكمد الشديديْن على قسمات وجهه. وفي هذا التسجيل يشكو من أن السفارة البريطانية، ثم الأميركية، تباعا قد رفضتا منحه تأشيرة سفر

لغايات العلاج. هذا علماً بأنه أقام في بريطانيا نحو عقد، كما أنه صاحب اسم أدبي مرموق لا يحتاج إلى التعريف به. وكانت شكواه بحق بلاده وسلطاتها الجديدة التي لم تتحرّك لتأمين علاجه وتسهيل سفره. وإلى التأشيرة الممتنعة عليه، شكا أحمد إبراهيم الفقيه من أنه لم يتحصل على حقوق مالية (رواتب أساساً) نظير خدمته الرسمية، وكانت آخر الوظائف التي تولاها عضوية في ممثلية بلاده لدى جامعة الدول العربية. وكان صاحب أطول رواية عربية (خرائط الروح، 12 جزءاً) واضحا في تركيزه على أنه لا يطلب عونا أو مساعدة أو إحسانا، بل أن يتحصل على حقوقه الوظيفية فقط. وقد أفاد، في هذا المعرض، بأن المجلس الرئاسي قد أمر بصرف المستحقات، لكن الجهة المخولة بالتنفيذ لم تصدع لأمر الصرف.

على هذا النحو، تُرك الفقيه لقدره، فقصد في الأسبوع الأخير من حياته، أحد مستشفيات القاهرة، على الرغم من إدراكه عدم توفر العلاج له، ملتمسا، كما يبدو، وقف تدهور وضعه الصحي، لا غير، لكن القدر لم يمهله طويلا، وإذا بخبر رحيله يظهر في المواقع الإلكترونية الليبية مجاورا لأخبار المعارك على تخوم طرابلس، وتقارير منظمة الصحة العالمية عن أعداد الضحايا. وكأن هذا الرجل الدمث والمسالم قد سقط في غمار هذه الحرب العبثية وفي سياقها. وقد أمضى سنواته الأخيرة في التعريف بأعلام الثقافة والفن والصحافة في بلاده، محاولا، عبر هذه الإضاءات، استنهاض همم الليبيين للإعمار والبناء الروحي، باستلهام سيرة أولئك الرموز،

بالذات من كانوا يرحلون تباعا عن دنيانا من دون أن ينالوا ما يستحقونه من اهتمام، وذلك وسط الفوضى التي ضربت البلاد، قبل أن ترتقي هذه الفوضى إلى جنون عسكري.

ولم يكن مستغربا، في ظل هذه الأجواء، أن يقيم الفقيه خارج وطنه، وفي البلد الأقرب إلى ليبيا وهو مصر، الذي شدته روابط قوية إلى أجوائه ورموزه الثقافية، وإلى مجمل الحياة الأدبية فيه. وكان منجذباً إلى الدور النهضوي لمصر، وإلى صداقاته المتشعبة فيها التي تُنجيه من الشعور بالغربة في بلد آخر، مثل بريطانيا، سبق أن أقام فيه، وظل يتردد إليه كلما حانت الفرصة لقضاء إجازات أو متابعة ترجمة لأحد كتبه، أو للعلاج، فلما اشتد احتياجه إلى المملكة المتحدة للعلاج فيها، إذا بالسفارة البريطانية تحرمه من التأشيرة.

وكانت اللعنة البغيضة التي حاقت به أنه عمل سفيرا في أثينا وبوخارست إبان عهد معمر القذافي. علما بأن كثرة من كبار العاملين في المؤسسات الرسمية، وبينهم سفراء، لم يكونوا على رضا عن القذافي وسياساته. وكان من حق الجميع العمل في مؤسسات الدولة التي هي، في النهاية، مُلك لليبيين، وليس لنظام بعينه. وعلى حد تعبير السفير في الأمم المتحدة، عبد الرحمن شلقم، في لقاء تلفزيوني، كان الجميع يعملون في الدولة، فإذا ما تم تصنيف هؤلاء أنهم جزء من العهد السابق، فإن أحداً لن يكون بمنجاةٍ من هذا التصنيف، لا سيما أن البلد شهد إضعافا للقطاع الخاص والمؤسسات المستقلة. ويستبعد هذا التقييم، بطبيعة الحال،

الدائرة الضيقة بالدكتاتور أو عتاة الأجهزة الأمنية أو من أصابوا ثراء واسعا عبر طرق غير مشروعة، وبالتقرّب من الدكتاتور. وكان الفقيه بحاجة للكتابة في الصحف والمجلات العربية لكي يتمكن من تدبير أمور معيشته، إذ كان يسهل حرمانه وحرمان غيره فجأة من أي موقع بسبب واهٍ أو بغير سبب. ناهيك عن سلب الشخص حياته، إذا ما تم اشتمام رائحة معارضة لديه، وكان النظام آنذاك يتفنن في مطاردة معارضيه وتصفيتهم في عواصم الدنيا.

وقد ظل الرجل يحلم بأن تُرزق بلاده بدولةٍ طبيعيةٍ، يكون فيها شأنٌ للنخب من علماء ومفكرين وأكاديميين وأدباء وفنانين وسواهم، وأن تتمتع بالمكانة الحضارية التي يُضفيها هؤلاء عليها، من دون أن يطالبوا باتخاذ مواقف سياسية. وكان يروقه أن مصر ظلت، إلى سنواتٍ قليلةٍ، تحترم كبار مفكريها، على الرغم من تقلب العهود، وبصرف النظر عن ألوانهم الفكرية ورؤاهم السياسية المبثوثة ضمنا في مؤلفاتهم. وقد اصطدم حلمه بدخول بلاده في نفق مظلم، بعد انبلاج فجر إطاحة الدكتاتور. وقد ترافق ذلك مع الانحدار التدريجي في وضعه الصحي، بيد أنه واصل الكتابة والنشر بغزارة. ويصعب حصر مؤلفاته التي تزيد على الستين (أغلبها في الرواية والقصة)، بما في ذلك على موقعه الإلكتروني الذي بقي بغير تحديث، نظرا لنشرها في دور نشر مختلفة. ومن آخر كتبه رواية «خالتي غزالة تسافر في فندق عائم إلى أمريكا»، التي صدرت في مايو 2018 عن «روايات الهلال» المصرية.

ومع مواكبته للأعلام الراحلين في بلاده، فقد رافقه هاجس الموت في السنوات العشر الأخيرة، مع رؤى عرفانية تخاطب الغيب، وقد عكس ذلك في كتابه «قصص من عالم العرفان»، التي بنى فيها قصصا إشراقية عن كبار الأعلام الراحلين، إضافة إلى إصدار سيرة ذاتية في ستة أجزاء. وعلى هذا النحو، كان الفقيه يسابق الزمن، وقد انعكس ذلك على أسلوبه الذي أخذ يتخذ سمة المباشرة والتشويق والتعظيم من شأن الحكاية، ومع شيءٍ من التضحية بعناصر السرد الأخرى.

4 مايو 2019

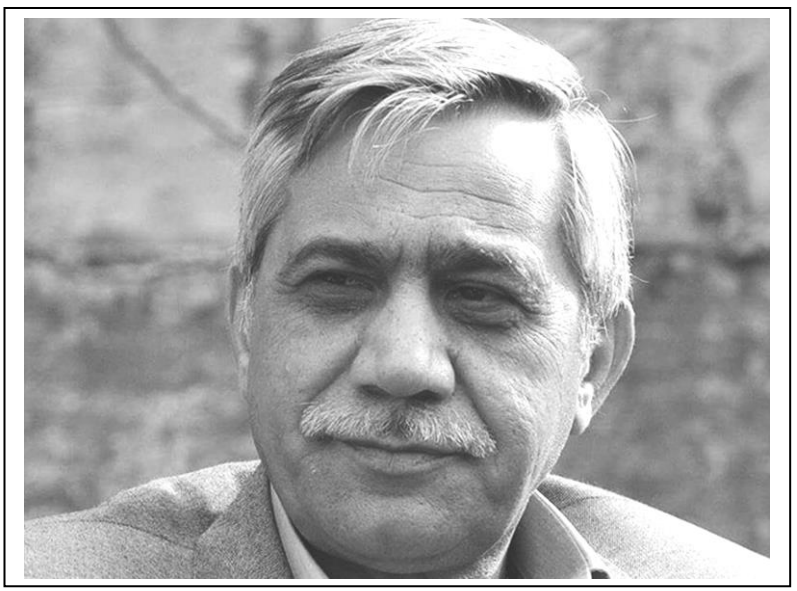

إلياس فركوح..
حيوية كائن ثقافي

قد لا يعرف كثيرون أن الكاتب الأردني، إلياس فركوح، من أصل غير عربي (أصله يوناني). وفي حوار عابر معه عن هذه المسألة، بدا بين مهتم ومنفعل وغير مكترث بها، ولم يتوقف عندها طويلا. والراجح أن أسلافه قدموا إلى شمال الأردن في سنوات الإمبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر، وأن تجمّع أوائل العائلة منح قريتهم «زبدة فركوح» اسمها، وأن بعضهم انتقل من القرية إلى مدينة إربد القريبة، أصبحوا من أبرز العائلات المسيحية في «عروس الشمال»، بينما انتقل آخرون إلى عمّان. وربما كان لأصوله غير العربية دور في كَلَفه الفائق بالأسلوبية والقاموس المستحدث، وولعه بالصياغة المتأنقة لسروده في القصة والرواية، وهو ولع انتقل إلى كتابة المقالات والشهادات الإبداعية، إذ يصادف القارئ الأسلوب نفسه في الكتابة، وهو ما يعيد التذكير بعناية الشاعر والروائي سليم بركات في اجتراح لغته العربية «الخاصة» وشبه التراثية، وهو ذو الأصل الكردي. مع فارق أن فركوح احتفظ بمخزونه من الانتماء للمكان وهويته واحتكم إليه، ولم ينشغل بجذور «قديمة»، خلافا لبركات الذي عاش، على أي حال، ظروفا مختلفة.

على أنه يروق لإلياس فركوح الذي غادر عالمنا، الأربعاء 15 يوليو من العام 2020، أن يصف نفسه بأنه عمّاني، نسبة إلى العاصمة عمّان التي ولد فيها في العام 1948 لأسرة نشطت في عالم العقارات. وقد حمل كتابه القصصي الثاني عنوان «طيور عمّان تحلّق منخفضة» (1981)، وقد أقامت أسرته في الأربعينيات والخمسينيات في قلب المدينة القديم، وكان الموقع هادئا بغير اكتظاظ سكاني، أو اختناق في حركة سير المركبات. ونادرا ما ينسب أحدٌ من الأردنيين نفسه إلى عمّان، حتى لو رأى جدّه وأبوه النور فيها، ثم هو من بعدهما، فأبناء العاصمة وسكانها يُنسبون إلى أماكن الأجداد الأولى أو إلى جذورهم القبلية. في العقدين الأخيرين، ومع دردشة معه، تساءل مرة: أين هي عمّان؟ هناك أكثر من عمّان، هناك عمّانات، وليس كما كان عليه الحال في الماضي، أيام كانت المدينة أكثر تجانساً، ولم تكن مترامية الأطراف (يبلغ عدد سكانها حاليا بين أربعة ملايين ونصف المليون، وخمسة ملايين نسمة من جملة عدد سكان الأردن البالغ عشرة ملايين نسمة)، وكان لها مركز واحد هو وسط البلد. أما الآن، منذ بداية الألفية الثالثة على الأقل، فإن لكل منطقة مركزاً تجاريًا وحضريًا خاصًا بها. هكذا تعدّدت المراكز والأطراف، وتعدّدت عمّان.

ومنذ أواخر السبعينيات، ومع كتابه القصصي الأول «الصفعة»، الصادر في بغداد عام 1978، نشط إلياس فركوح في الصحافة الثقافية وكانت آنذاك ما زالت في بواكيرها، ثم في العمل الثقافي الجماعي من خلال رابطة الكتاب الأردنيين التي تأسست عام 1974. وكان محسوبا

على القوميين (حزب البعث) آنذاك، على أن نشاطه الثقافي، أو معارضته ذات الطابع الثقافي، غلبت على ميوله السياسية والحزبية. وأن يكون فركوح على صلةٍ بحركةٍ قوميةٍ عربيةٍ تستلهم التاريخ العربي، إلى جانب مصادر أخرى، وتُعْنى باللغة العربية باعتبارها حاملة للثقافة، فذلك يومئ إلى صيرورة فركوح وتحولاته المنقطعة عن أصوله غير العربية، وذلك بحكم تعاقب أجيال من الأجداد في المستقرّ الأردني والفضاء العربي، وبالذات فضاء بلاد الشام.

وفي أواسط الثمانينيات توالت إصدارات فركوح وازداد حضوره الثقافي، وقد بدا أن خياراته تتجه إلى التفرغ للكتابة لا إلى العمل الوظيفي بما في ذلك الصحافة، فرغم حضوره الإعلامي وعلاقاته الواسعة مع الجسم الإعلامي، فإنه لم يجنح إلى الانخراط في العمل الصحافي أو الكتابة الصحافية المنتظمة، وفي ذلك يصف نفسه في حوار له مع «العربي الجديد» (26 إبريل 2016): «لستُ كاتبا محترفا، ولا أريد»، علماً أنه أمضى سواد حياته في الكتابة، وخاض في الترجمة الأدبية عن الإنكليزية، ما جعله بحقّ أقرب إلى فاعلٍ يحمل سمات وتكوين كائن ثقافي، متمتعاً بالحيوية والدينامية في هذا المجال. وهو ما دفعه في تلك المرحلة إلى الانضمام للشاعر طاهر رياض الذي كان قد أسس دار نشر باسم «منارات»، حيث عملا جنبا إلى جنب في الدار. وكانت دور النشر المهتمة بالإبداع والنقد الأدبي قليلة. وفي تلك الآونة تعاون فركوح، مع الناقد فخري صالح، في إصدار وتحرير مجلة «المهد»، مطبوعة أدبية متخصصة

معنيـة بالاتجاهـات الحديثـة في الإبـداع والنقـد، وبإشـراف مـن الناقـد والأكـاديمي كمـال أبـو ديـب، وهـي ثـاني مجلـة مـن نوعهـا في الأردن بعـد «الأفق الجديد» الرائدة. صدرت أعداد قليلة من «المهد» الفصلية، بعد أن تم استنزاف رأس المـال المرصـود مـن مالكهـا ومـديرها الشـاعر الشـعبي سليمان عويس. وقد أغلقت دار «منارات»، ولم تلبـث مجلـة «المهـد» أن توقفت بعد صدور سبعة أعداد منهـا، وقـد أصـدر صـاحبها عـويس العـدد الأخير، وعهد إلى الشاعر والناقد عبدالله رضـوان بتحريـره. وقـد اكتشـف فركوح، في أثناء عمله في الدار والمجلة، وعلى الرغم من الخسائر الماليـة للمشـروعين، أن الصـناعة الثقافيـة، وبالـذات صـناعة النشـر، هـي خيـاره الملائم، وذلك في ضوء الإحباطات من الحياة السياسية العربية، وبالذات لدى نظـامي البعـث في العـراق وسـورية وعقـب الغـزو الإسـرائيلي للبنـان صيف 1982، بما لا يُبقي مجالا بالنسبة إليه سوى لتكريس جملـة حياتـه وجُماع جهده للنشاط الثقافي.

هكذا مع بداية التسعينيات، ومستفيدا من تجربته القصيرة، لكن الثريـة في «منارات»، عمد بصورة منفـردة إلـى إنشـاء دار «أزمنـة»، مسـتلهما اسـم مجلة «الأزمنة الحديثة» التي كان يصـدرها جـان بـول سـارتر، بينمـا الـدار الأولى استلهمت عنوان قصيدة للشاعر سان جون بيرس. وبفعل حضوره الثقافي، وعلاقاته الواسعة بالأدباء الأردنيين والعرب، سـرعان مـا نجحـت «أزمنة»، وأثبتت حضـورها بـين دور النشـر العربيـة، لا المحليـة فحسـب. وكـان ممـا يُحسـب للـدار أنهـا أطلقـت مجموعـة مـن الكاتبـات الشـابات،

منهن جميلة عمايرة وجواهر الرفايعة وأميمة الناصر وسواهن. وقد نجح فركوح، في خطة النشر التي تقوم على إصدار الكتب التي يرغب هو شخصيا، باعتباره أديباً وقارئاً، في قراءتها. وزاوج بين النشر لأدباء أردنيين وعرب، ثم بين الأعمال الموضوعة والمترجمة، وبين النصوص الإبداعية وكتب الدراسات والنقد. مع عنايةٍ شخصيةٍ منه بالهوية الفنية لإصدار الكتب، ابتداء من الغلافين، الأول والأخير، إذ كان يتولى شخصياً تنسيقهما. وقد أدّت الأزمة الناجمة عن تفشي وباء كورونا وإغلاق القطاعات الاقتصادية وتوقف معارض دور النشر إلى أن يقرّر الناشر والأديب فركوح إعادة النظر في وضع الدار، وكان يتجه إلى النشر الإلكتروني خياراً أولاً، إضافة إلى خيارات أخرى ظلت مكتومة لديه، وقد انعكس ذلك سلباً على وضعه النفسي والصحي (متاعب في القلب)..

بالرحيل الصادم لإلياس فركوح، يخسر الأردن أحد أبرز رموز التنوير والحداثة الثقافية فيه، على مدى نحو أربعة عقود متصلة، وقد ترك بصمات واضحة تشهد عليها مؤلفاته وترجماته، وإصدارات دار النشر خاصته.

18 يوليو 2020

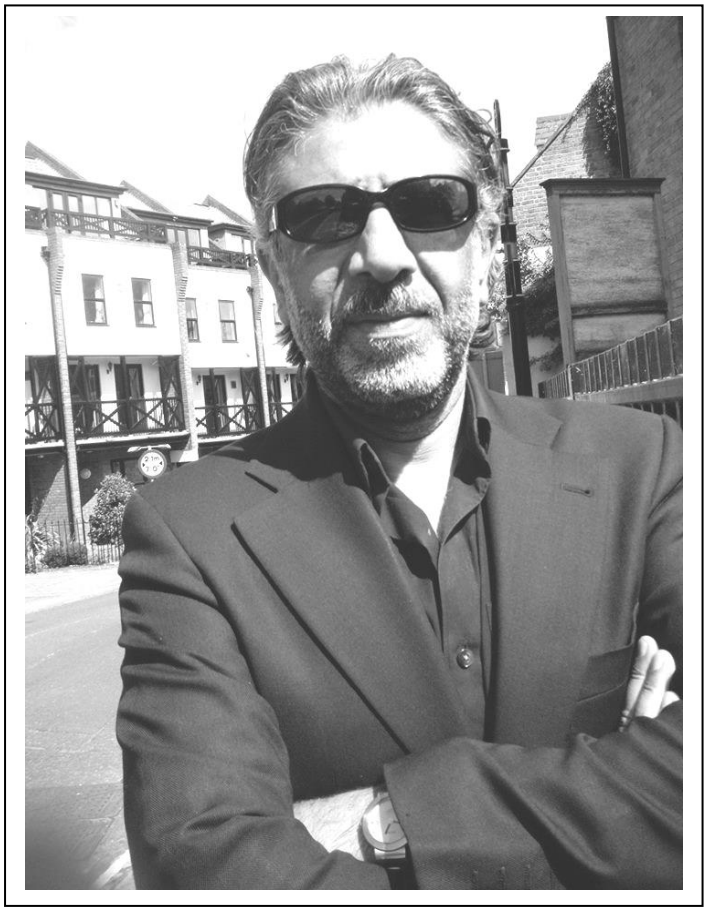

الغضب يليق بأمجد ناصر

كثيرون لا بد قد لاحظوا أن نص الشاعر أمجد ناصر، ونشره أخيرا، «قناع المحارب» قد اتسم بالغضب، لا بالشجن وحده، فهو بين قلةٍ من شعراء يحضر الموت جزئيا، عابرا وجانبيا، في قصائدهم، باستثناء المراثي. يصعب تقصّي ثيمة الموت في شعره، إذا كان الأمر يرتفع إلى مصافّ ملمحٍ رئيسي، ثابت ومتكرر. لقد اتسمت قصيدته الأخيرة وما تخللها من مقاطع سردية تقريرية، بين ما اتسمت به، بنبرة غضب من «الشيء القائم»: ما مشكلتك معي؟ وحين يقدح الغضب، فإن النفس تجنح إلى الشجار وترتفع وتيرة التقريع: لا تسترد دينك من الذين يمرّون في هذه الدنيا/ كما تمرّ أنفاس الرعاة في قصب الناي..». هكذا واجه أمجد الخطر الداهم بأكبر قدر من الشعور بالكرامة الإنسانية، محتفظا بطبع الغضب الذي نشأ عليه، «سوف ألقنك مواثيق الرجال/ كما لقنتني إياها الصحراء والغدران الجافَّة»، وبرقّة الشاعر الذي هذّبته الكلمات وهذّبها، في مسيرة غير قصيرة حافلة بالتجديد، إذ ظل معنيا بتجديد ذاته الشاعرة، والخروج منها وعليها، بأكثر مما كان معنيا بتجديد الشعر برمته.

وقد كان من الخفّة البالغة تصويره أنه يرثي نفسه في هذا النص، إذ كان، في واقع الحال، يناجي النفس ويناور لعبة الحياة، ويدعو الموت إلى النزال. وكانت تقارير صحفية زادت على حكاية رثاء النفس بأن الشاعر

يرفع الراية البيضاء! وهو استخلاصٌ عجيب، فأمجد ليس من حملة الرايات، وليس محسوبا على «شعراء الراية» بحسب تصنيف فوزي كريم، الشاعر العراقي الذي رافقه في المهجر اللندني، وانسحب من الحياة في ذروة مرض أمجد، إذ إنه يكتفي بإشهار أسئلته وهواجسه، ويروي وقائع احتكاكه بالحياة، أجل احتكاك. والتعبير ينسجم مع الطابع الحسي الذي يتسم به قاموسه الشعري، وينسجم مع رؤيته الإبداعية، وذلك لتحرير المجاز من وظيفته الاستبدالية في وصف الأشياء وتسميتها.

مؤلم أن يبدو أمجد تحت وطأة العارض الصحي الجسيم عاجزا، أو شبه عاجز، عن اجتراح الكتابة مجدّدا، ويكاد في الأثناء يفقد ذاته التي صنعها بنفسه، عبر الترحال والتجربة والتثقيف والمثاقفة، بعد الذات الأولى التي خرجت إلى الوجود بيولوجيا. أن يعاين خسارته رأسماله الذي بناه بجهده وعرقه واختياراته الحرّة والجسورة، فقد زاوج باقتدار بين الشعر والنثر، وبين القصيدة والسرد، وكما تبدى جليا في نصه الأخير، وأن تبدو الحياة في هذه المحطة «كسرد متقطع».

من المؤلم هذا، لأن المبدع يعيش حياة ثانية، مستقلة نسبيا عن جسده البيولوجي (كلما تقدّم المرء في العمر، يختبر بسهولة كيف يستقل عن جسده، وينساه، وكيف تحلق روحُه وتهيم منفردة)، فإذا ما أصاب جسد المبدع وهن أو اضطراب، أو انكسار، فما شأن كيانه، أو إهابه الآخر بما يحدث؟ لماذا يستتبع الكيان الثاني ذاك الأول، ولماذا لا يحدث العكس بأن يأتمر الجسد بأوامر الكيان الناشئ؟ تلك هي لعبة الحياة ولعنتها،

فالكائن البشري، بما فيه الخلاق المبتكر، يولد وينمو ويتزاوج ويهرم ويهدّده المصير المحتوم، شأنه في ذلك شأن أدنى الكائنات، المعروفة منها أو المجهولة، المرئية وتلك التي تتعذّر رؤيتها بالعين المجردة.

(2)

استهل أمجد حياته راديكاليًا في السياسة، وفي الشعر الأول الذي لم يجمعه لاحقا. وسرعان ما أدرك أن الإبداع يشقّ طريقه الخاص، متحرّرا من كل ما يثقله من خارجه. وبقي أمينا لنزعة تحرّرية، ولتبني قضايا بسطاء الناس، وسمت بدايته مع استخلاص الدروس من التجربة وتبريد الرأس، وإعادة النظر في محتوى مفاهيم اليسار واليمين. وقد أصيب في وقتٍ ساد الجحيم البشري في ديار العروبة وعلى أيدي أنظمة متوحشة. وهو ما يعكسه ديوانه الجديد «مملكة آدم» الذي اطلع كاتب هذه السطور على قصائد منه. وبينما تساقطت البراميل المتفجرة على بيوت الناس العزل، فقد اختار السرطان نموذجا شديد التصغير للبرميل المتفجر، لكي يستقر في رأسه، وأن ينمو هناك، ويتسبب على مدى عام بصداع للشاعر، لا يقل فداحةً عن «الصداع الكوني».

بهذا، عاد أمجد إلى الناس (من دون أن يفارقهم، بل اختار حيزه الخاص)، ليأخذ معهم حصته الكبيرة من الجحيم، أسوة بما لا يُحصى من ضحايا ومصابين ممن ضجر الأصحّاء من متابعة محنتهم... بينما

اعتبرهم رفاق سابقون لأمجد بأنهم لا يستحقون الانشغال بهم، والتوقف عندهم في معمعة «النضال ضد الإمبريالية».

(3)

يصف أمجد حياته بأنها «لا توسط فيها. تطرف. مراودة الأقصى»، كما كتب في نصه الأخير، والحق أنه كان متطرّفا في ولائه للشعر وللإنسان بعامة. وخلا ذلك، كان يعرف، في دخيلته، أنه منذور للتعدّدية، منذ اختار يحيى نميري النعيمي (أو النعيمات) أن يتسمّى بأمجد ناصر. الكائن البيولوجي: يحيى، والإبداعي: أمجد. وقد عاد له اسمه في ملفه الطبي، وعلى ألسنة الأطباء والممرّضين، كما كان يعود إليه في أقسام الجوازات واستقبال الفنادق. وبعدئذ بات: أردنيا وفلسطينيا معا، مع احتسابه قضية فلسطين قضيته الوطنية والشخصية. ثم وقع في هوى قبرص التي لجأ إليها عقب غزوة 1982 الإسرائيلية، فكاد يصبح عربيا قبرصيا. ومع إقامته في بريطانيا، وتجنسه بجنسيتها بات عربياً بريطانياً. وفي إبداعه زاوج الشعر بالنثر، وبين كتابة الشعر والنثر الخالص. وفي حياته المهنية، زاوج بين الإعلام والإبداع. وبهذا، فقد تحالفت الأقدار والخيارات الشخصية على أن تصبح هويته مركبة، وذاته موئلاً للثنائيات والتعدّدية المتعايشة والمتجاورة كزوجات المِزواج.

(4)

لم تكتف بعض الصحافة السريعة والمتسرّعة بوصفه أنه قد رثى نفسه، إذ أضاف بعضها، قبل أيام، ما يفيد باستعجال المكروه. وتلك عادة درجت عليها بعض هذه الصحافة، ومعها منصات التواصل، في إماتة الأحياء، كما فعلت مع محمد الفيتوري ومظفر النواب وسواهما، وذلك بناء على شطارةٍ بائسة، تقوم على أن مثل هذا الحدث «متوقع»، و«يمكن الخبر يزبط» (لعله يصح)، بأن يفارق إنسانٌ الحياة، كي يصح خبرنا – السبق. بمثل هذه الخفّة، يتم التلاعب بمصير شاعر زميل. وهذا هو مآل بعض الصحافات، في المهنة التي اختارها الشاعر، بعدما أدركته حرفة الأدب.

15 يونيو 2019

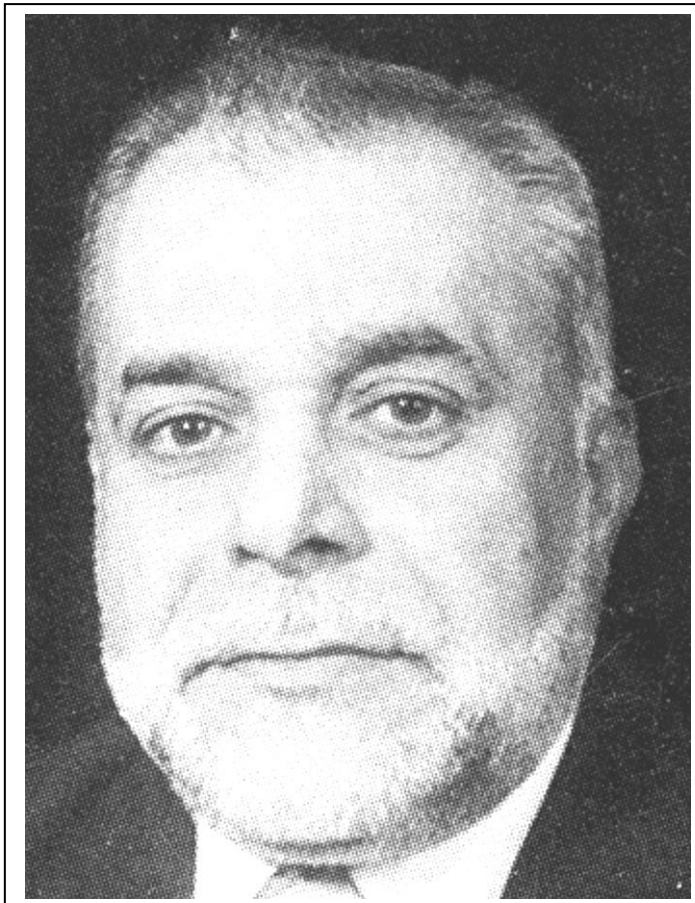

أمين شنار..
الوجوديّ المؤمن[1]

في العام 1961 صدرت في القدس مجلة «الأفق الجديد» نصف شهرية، لم تلبث أن تحولت إلى شهرية. وقد ترأس تحريرها شاعر شاب لم يكمل الثلاثين من عمره آنذاك هو أمين شنار.

دارسو الحياة الأدبية في الأردن وفلسطين يعتبرون أن هذه المجلة هي أول دورية أدبية، اسهمت بصورة دينامية خلاقة ولا سابق لها في نشر وتقويم الإبداع الجديد، وفي وقت لم تكن فيه الصحف المحلية تخصص صفحات للثقافة. على أن أمين شنار نفسه أسهم في إرساء هذا التقليد عبر صحيفة «المنار» اليومية، إذ كانت الأفق الجديد تصدر عن دار «المنار للصحافة». أما الأدباء المساهمون في المجلة، الذين اكتشفتهم «الأفق الجديد»، فلم يلبثوا ان تحولوا إلى محررين للصفحات الثقافية، ومن هؤلاء: محمود شقير، خليل السواحري، يحيى يخلف... وإلى هؤلاء عرف مبدعون كثر طريقهم إلى النشر للمرة الأولى، عبر صفحات هذه المجلة، ومنهم الشاعران الراحلان محمد القيسي وعبدالرحيم عمر، وفايز صياغ وعز الدين المناصرة ووليد سيف، والقاصون فخري قعوار

(1) النص مشاركة ألقيت في الندوة العلمية التكريمية للراحل الشاعر أمين شنار، التي أقامتها رابطة الكتاب الأردنيين، يوم السبت 17 ديسمبر 2005.

وماجد أبو شرار وصبحي شحروري. بل إن المجلة اجتذبت إليها اقلام غادة السمان، صلاح عبدالصبور، أحمد عبدالمعطي حجازي، مجاهد عبدالمنعم مجاهد... وبالطبع لم تكن المجلة آنذاك تدفع أي مكافآت مالية، إذ كان النشر بحد ذاته مكافأة معنوية لا تُقدَّر بثمن. وكما كانت عليه حال المجلات الأدبية الأخرى، إذ كان أمين شنار وصياغ والقيسي والمناصرة، ينشرون في الأوان نفسه في «الآداب». أما فايز صباغ فقد نشرت مجلة «شعر» قصيدة له في عددها الخامس، وقد أصدر ديوانـًا واحداً بعنوان «الحب مثلاً».

واكبت «الأفق الجديد» موجة الحداثة في الشعر والقصة في الأردن والعالم العربي لخمس سنوات وبـ66 عدداً. فقد توقفت في العام 1966 لأسباب مالية كالعادة، ولسبب آخر وهو دمج الصحف بقرار حكومي، ومنها صحيفة «المنار» التي كانت تصدر عنها المجلة بصفحة أخرى، وعندما تبين أن دائرة الثقافة والفنون التي أُنشئت حديثـًا آنذاك تستعد لإصدار مجلة هي «أفكار» التي ما زالت تواظب على الصدور بصورة شهرية.

غير أنه كان لـ«الأفق الجديد» سحر البدايات، فقد فتحت بالفعل أفقـًا جديداً لحركة الإبداع واجتذبت إليها جيل الشبان، فلم يسهم بها أدباء مكرسون آنذاك، مثل عيسى الناعوري ومحمود سيف الدين الإيراني وفدوى طوقان وسلمى الجيوسي، إذ كانت مجلتا «الآداب» و«الأديب» تستقبل إنتاج هؤلاء في تلك الآونة.

وقد تميز رئيس تحريرها أمين شنار بخاصية فريدة، أنه إسلامي النزعة والتوجه والقناعة، على أنه شديد الحماسة لموجة الحداثة وشريك فاعل فيها. وبينما يتسم شعره بنبرة غنائية عذبة صافية، فإنه يحفل بنزعة تأملية عميقة ذات نفس وجودي، حتى قيل إنه وجودي مؤمن.

وأبعد من ذلك، فقد سمح تحرره الفكري بأن تزخر «مجلته» بكتابات يساريين ووجوديين، وكان ينشر (لغيره) قصيدة عمودية واحدة كل عددين، إلى جانب عشر قصائد على الأقل من شعر التفعيلة.

بعد هزيمة العام 1967، وإثر نزوحه من البيرة (توأم رام الله) التي كان نائباً لرئيس بلديتها، ومدرساً ثانوياً للغة العربية في الكلية الإبراهيمية في القدس، بعد هذا التاريخ وأثناء إقامته المديدة في عمان، بدأت تنمو لديه نزعات صوفية. وواظب على الكتابة في صحيفة «الدستور» باسمه وبأسماء مستعارة، إلى جانب كتابة رواية «الكابوس» التي فازت بجائزة دار النهار للنشر عام 1968، مناصفة مع الشاعر الراحل تيسير سبول.

لم يكن أمين شنار زاهداً، بل كان هو الزهد نفسه، فلم يعمد إلى جمع قصائده المنشورة في «الأفق الجديد» و«الآداب» و«المعارف» (صدرت في بيروت أواسط الستينيات برئاسة تحرير يوسف الحوراني، وعاشت عمراً قصيراً) و«أفكار» الأردنية و«الشعر» المصرية... لم يجمعها في أي ديوان، ولم يتطوع رسميو الوزارة ولا الرابطيون (أركان رابطة الكتاب) إلى جمع آثاره الشعرية. غير أن وزارة الثقافة قامت في العام 2002

بمناسبة اختيار عمان عاصمة ثقافية، بجمع أعداد مجلة «الأفق الجديد» في مجلدات صدرت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

رحل أمين شنار بصمت شديد الأحد 18 سبتمبر من العام 2005، وقد ظهرت في الصحف إعلانات نعي عائلية به، أما الصفحات الثقافية فقد تجاهلت خبر غيابه ليومين متتاليين.

على أن إبراهيم خليل جمع معظم قصائده في كتاب صغير أصدرته صحيفة «الدستور» التي أمضى شنار عمره في الكتابة فيها (وهي وريثة المنار) إلا أن الإخراج بالغ الرداءة لهذا الكتاب المضغوط، وبنط القصائد الصغير، وكذلك العنوان الذي تم اختياره للكتاب «الشاعر والأفق»، إذ لا يتبين القارئ إن كان الكتاب مجموعة شعرية أم هو دراسة، ذلك كله أسهم في دفن الكتاب وصرف الاهتمام عنه. ومنذ نحو عقد من الزمن، أغلق شنار باب بيته ولم يفتحه إلا لقلة من أقرانه المتصوفين المعتزلين (بينهم الممثل عمر قفاف) وقد تناساه النقاد والمحررون، إذ لم يتم إجراء أي مقابلة صحافية معه، وبذلك فقد أسهمت الصحافة الثقافية إسهاماً «طيباً» في تجاهله!

جدلية الحضور والغياب

عاش أمين شنار في جدلية دائمة من الحضور والغياب، إذ إن إبداعه على تفرقه يحضر بقوة بينما يغيب شخصه بصورة ملحوظة. على أن هذه الثنائية لم تستحوذ عليه إلا في النصف الثاني من عمره، ففي شبابه في عمر

الثلاثين تقريبا خاض انتخابات بلدية في البيرة، وكان معلما ثانويا، ومقدم أحاديث أدبية في الإذاعة، ومحررا ثقافيا وكاتبا في «المنار»، إلى جانب رئاسته لتحرير «الأفق الجديد»، فقد كان فريق التحرير مكونا منه فحسب. ومغزى ذلك أن أمين شنار كان ناشطا مهنيا وفاعلا اجتماعيا، ووثيق الصلة بالمجتمع في تلك الفترة التي سبقت هزيمة حزيران، وأن هذه الهزيمة شكلت في ما بعد أحد البواعث الأساسية لعزلته، دون أن يتوقف عن الإبداع، أو عن مواظبة الكتابة الصحفية الراقية.

ومن حسن الطالع أني تعرفت إليه في الحقبة الأولى من حضوره الشخصي والمهني والاجتماعي، إذ كان يستقبل في مكتبه في القدس ببشاشة ومودة بالغة فتى قادما من أريحا، يتدبر أجرة الذهاب والإياب من مصروفه المدرسي، وهكذا شاءت الاقدار أن يكون تعرفي إليه، وأنا لم أزل فتى على مقاعد الدراسة الإعدادية فنشأت بيننا علاقة أستاذ بتلميذ، وعلاقة مبدع ناضج بفتى تسحره الكلمات خارج المنهاج المدرسي، وقد أخذ بيدي ونشر كتاباتي الأولى في «المنار»، وأهداني ديوانه «المشعل الخالد» وقد شعرت ما إن باشرت قراءة الكتاب، على ما فيه من إشراق وومضات وجزالة تعبيرية، أنه ليس لمؤلفه الذي تسحرني كتاباته في «الافق الجديد»، إذ كان الديوان يضم قصائد مناسبات وطنية ودينية عمودية. وكان قد تجاوز في تلك الأثناء وبصورة شبه جذرية ذلك الديوان، على أنه كان ديوانه الوحيد المطبوع. وأذكر أني أهديته في المقابل كتاب «أعراس» لألبير كامو. ومن دواعي المرارة أنه لم تتح لي فرصة

لقائه بعدئذ سوى مرتين في عمان، مرة في لقاء عابر أمام إحدى بسطات الصحف أواخر العام 67 حيث أخذ يندب أحوال الأمة ويدعو لعدم الترفق في نقد مواضع ضعفها وفواتها، ومرة ثانية وأخيرة في بيته في جبل الحسين عام 69، وكان حديث السياسة هو الطاغي، وبعدئذ ومنذ ثلاثة عقود ونصف العقد لم أعد أسمع كغيري، سوى بانقطاعه عن الناس وعزوفه عن مخالطتهم، بما في ذلك من قسوة شديدة على النفس، ومن استغراق في الزهد.

على أن أمين شنار الذي بقيت منه للأجيال اللاحقة صورة الزاهد المنقطع عن شؤون الدنيا وشهواتها وتلبيساتها، يتمتع قبل ذلك بفضل الريادة الشعرية، إلى جانب مجايلين آخرين كعبد الرحيم عمر وفايز صياغ وتيسير سبول، وبالتوازي مع عطاء أجيال سابقة كفدوى طوقان وسلمى الجيوسي، وقد أطلق «الأفق الجديد» كمختبر للحداثة والتجديد في وقت لم تكن فيه الصحف المحلية، تعرف تقليد تخصيص صفحات للأدب والثقافة، ناهيك بإصدار مجلة أدبية، مع ما للمرحومين محمود الشريف وجمعة حماد من فضل في تبني إصدارها، بصفتهما أصحاب دار المنار التي كانت المجلة تصدر عنها، ولما يتمتعان به من ذائقة أدبية.

يجدر بالذكر هنا أن «المنار» آنذاك كانت صحيفة إسلامية، بينما كنت أنتمي لأسرة ناصرية الهوى والميول، ولم تكن «المنار» بالتالي صحيفة البيت والعائلة. لكن الفتى الذي كنته كان يحرص على شراء «المنار»، لا لشيء إلا لقراءة كتابات أمين شنار فيها، ثم لمتابعة ما ينشره لي على

صفحاتها. وقد تعلمت بذلك درسا ثمينا ومبكرا، مفاده أن الإبداع لا تحده حدود أو تقيده قيود أيديولوجية. أما المجلة التي لم أكتب فيها سوى مرة أو مرتين في زاوية البراعم، فكانت مثالاً على التعددية الفكرية بفضل رحابة أفق رئيس تحريرها، وغنى وتركيب شخصيته التي تجمع بين النزعة الحداثية الجامحة في التعبير الإبداعي، وبين ميوله الفكرية التي قد تُصنَّف بأنها محافظة، على أن النزعة الدينية في بعض افتتاحياته للمجلة وعلى ما استقر في وعيي الآن بل بصورة مبكرة، هي نزعة تعول على وعاء حضاري للأمة، وعلى ميل عميق تصوفي إشراقي لصاحبها، ومع فتح صفحات المجلة لكتّاب يساريين ووجوديين، مما منح الفتى الذي كنته إيمانا مبكرا وراسخا بديمقراطية التعبير والتفكير، كما تجسدها هذه المجلة الرائدة، اضافة إلى التعرف على المفاهيم الجديدة للإبداع والنقد الأدبي.

أما افتتاحيات وقصائد أمين شنار فقد أسهمت إسهاما بالغا وعميقا في تشكيل ذائقتي اللغوية، وذلك بالحرص التام على تفادي الركاكة والرخاوة التعبيرية، وتجويد وبلورة صناعة الكتابة، والتماس إيقاع لفظي وتركيبي لها، كي تضيء الكتابة في النهاية ذاتها: كنص ينطوي على خصوصية بلاغية، وينبض بلغة خضراء. وحتى تدل الكتابة على صاحبها:على روحه وسيمائه وتفرده. وقد طُبع أمين شنار في هذا التأثير منذ البواكير، منذ سني اليفاعة الأولى، بما يجعله أكبر من أستاذ، وأبعد أثراً من معلم.

وإذ بقي هذا التاثير ماثلاً يفعل فعله في النفس، ويمور في الوعي والوجدان، فمن المفارقة أن صاحبه مضى إلى احتجاب، ولم يُعن بجمع آثاره الغنية المبثوثة في صحف ودوريات في كتب، لكي تتم العودة الواجبة إليها وقد ائتلفت في كتب مجموعة ومصنفة، يسهل الوقوف عندها وتفحص مواطن الجمال والثراء فيها. كما لم تعمد جهات معنية للنهوض بهذه المهمة الجليلة، باستثناء مبادرة الناقد د. إبراهيم خليل، التي لم يقيض لها أن تخرج فنيا وطباعيا، بالصورة التي أملها صاحبها منها[1].

وعليه ظل أمين شنارعلى مدى عقود وحتى يوم الناس هذا، شعاعا غامرا وروحا حية تخفق في جنبات الصحف وفي مايكروفون الإذاعة، وفي وعي مجايليه، وفي نفوس قرائه الكثر خاصة المتذوقين منهم، وفي ضمائر تلامذته النابهين، دون أن يجتمع في كتب أو يحتشد في مؤلفات، بما يعكس في المحصلة وإن بصورة ظالمة روحه المشبوبة القلقة، ونزوعه الجياش الذي لا يتقدمه نزوع آخر للاتحاد بما يسد نقص الكائن البشري، كما يجسد هذا الغياب الإرادي ترفعه الصميمي، عن أمجاد أرضية يتهافت عليها متهافتون بلا عدد.

(1) صدر لاحقا عن وزارة الثقافة الأردنية عام 2021 كتاب «أمين شنار أستاذ الجيل» للكاتب زياد سلامة. وسبق أن نشرت له رواية الكابوس عن دار أنهار للنشر بيروت 1968 بعد أن فازت بجائزة الرواية مناصفة مع رواية «أنت منذ اليوم» لتيسير سبول.

رفض[1]

(قصيدة لم تُنشر للشاعر أمين شنار)

يا شَعرَها الهفاف نم فوق الجبين

أتعبتني!

يا حاصد الشمس الذي لا يستكين

دوّختني

يا شعرها المعربد المنثال كالشلال

كفى! يا موسم الحب الذي لا يُنال

يا شعرها..

تثور في تيه، وفي دلٍّ

وتسترضيك، تستجديك، أن تهدا

فتستعلي

وفي مثل اهتزاز الأم في وجْدٍ، وفي نبلِ

(1) القصيدة ضمن مجموعة قصائد بخط يد الشاعر وتحمل تاريخا موحدا هو عام 1967، تم إدراجها في صفحة «ملتقى محبي الشاعر أمين شنار» على منصة فيسبوك، ومن تلك الصفحة أخذت هذه القصيدة.

على أرجوحة الطفلِ

تهزّ الرأس كي ترتدّ يا نزقًا، وكي تغفو

فتنساب كما الموجة، فوق الوجه، تغوي الثغر، كي يهفو

كفى...

دربي الهجيرُ الوغدُ يطويه

وظل الواحة الوسنان يغويه

يهدهد جوعه الضاري، يناديه

إلى أنثى، تصب الراح والشهدا

من العينين والشفتين في عينيه، وفي فيهِ

ألا قل لي

يا حبل الغوى الممدود

في دربي

أترضى، والرؤى حولي ظلامية

ووجه الكون مغموسٌ ببئر الويل والليل

وألحاني شتائية

وخطوي عاثر مكدود

أترضى أن ألبّي؟

نم، ولا تهتف

فقد جفّ مني قلبي.

تيسير سبول..
بطل من ذلك الزمان

(1)

لطالما تبدّى تيسير سبول لكاتب هذه الكلمات بطلًا روائيًّا، يندفع وسط الأنواء في زورق أثيري سريع يشقّ عقدَ عشرينياته ثم السنوات الأربع من العقد الثالث، بسيماء شابّ حنطيّ/ أسمر، نحيل رقيق البنية بعينين واسعتين وثاقبتين على شيءٍ من الجحوظ والاحمرار فيهما، وقد حفرَت الحياةُ أخاديد مبكرة على محياه.

وإذ انتمى الشاب اليافع إلى أسرة متوسطة الحال، ولم تكن تنقصه أسباب العيش أو مستلزمات رفاه الطبقة الوسطى في ذلك الزمان، إلا أن صاحبنا بمزيجٍ من الشغف بحياة نوعية.. روحية، وحساسية مرهفة ونوازع عبثية في دخيلته، كأنما اختاره الشقاء صنوًا له، واختار بدوره شقاءَه الخاص، شقاء الوعي والحساسية والبحث الممضّ عن المعنى والقيمة في الأشياء، في بيئة محافظة يتواصل الناس فيها بحياة جماعية مرسومة ومنضبطة، وقلّما يحفلون أو يرتضون بالفرد المتفرّد، مما أورثه شعورًا أوليًّا بالغربة النفسية، لم يلبث أن تفاقم حتى اتسع الخرق على الراقع .

ولتكبير الحياة الضيقة كما بدت له، ولإضفاء معنى جديد وقيمة

مضافة عليها، ولج تيسير عالم السياسة والأحزاب، ليس من أوسع الأبواب، إذ لم يُعرف عنه النشاط الحزبي اللافت والفعال، هذا رغم محاذير المنع والملاحقة السائدة منذ النصف الثاني من خمسينيات القرن الماضي، وقد اختار الانضواء في خط قومي عربي (بعثي)، ولم يلبث - وقد تفتّح وعيه الأدبي- أن تعرّف على الوجوديّة عبر مجلة «الآداب». بهذا انطلق من «الطفيلة»، المدينة الصغيرة في جنوب الأردن، إلى الزرقاء (المدينة الكبيرة)، ثم العاصمة عمّان، ثم إلى دائرة «الوطن العربي» على جناح الحزبية، ومنها إلى الإنسان الكوني عبر المذهب الفلسفي/ الأدبي.

خلال أقل من عشر سنوات هي الأخيرة في حياته (توفي عن 34 عامًا)، تقلّبت الظروف على تيسير وتبدّلت أحوال الدنيا من حوله وأمامه. وقد تلقّاها بحساسية فائقة وذهن متوقد وتفاعل عميق.. لقد شهد ثلاثة حروب: حرب عام 1967 التي هَزمت فيها «دويلةُ العصابات» مصرَ وسورية والأردنَّ واحتلّت ما تبقى من فلسطين بالإضافة إلى الجولان وشبه جزيرة سيناء، ثم حرب عام 1973 وما تلاها من مفاوضات استُعيدت فيها سيناء مقابل أن تجعل مصرُ تلك الحربَ آخرَ حروبها في سياق الصراع العربي الإسرائيلي، وبين الحربين برزت المقاومة الفلسطينية على أرض الأردن تعبيرًا عن خيار المقاومة الشعبي ومقارعة العدو، بعد أشهر قليلة على الهزيمة، جنبًا إلى جنب مع خلخلة النسيج الاجتماعي ومخاطر تفكيك الدولة الأردنية، وما تخلل ذلك من صراع

عسكري دامٍ مفتوح أقرب إلى حرب اتخذت من شوارع المدن وبقاعًا أخرى في الديار مسرحًا لها.

ولا شك أن معايشة ثلاثة حروب تحمل بقدر أو بآخر طعمَ الهزيمة، وخلال ست سنوات فقط، لم تكن بالأمر الهيّن أو المعهود على شاب مرهف الإحساس، متفتح الذهن، مقبل على الحياة: الدراسة والشعر والأدب والحب. لقد تكسّرت نصالها على نصال روحه، ولم يعرف الاستقرار ولم يصادف نفسه في أيّ مكان، سوى مع أصدقاء يشاطرونه بتفاوتٍ بين واحد وآخر الاهتمامات والصبوات، وفي بيته العائلي الذي أقامه على علاقة حب مثمرة، غير أن الحب على أهميته ومركزيته لم يطفئ بقية الحرائق في نفسه وفي ذهنه الذي بات مكدودًا. لقد اصطدمت مشاريعه ومطامحه الشخصية، بانكفاء الأحوال العامة وهزالها، وهو ما فاقم مشاعر العبث لديه.

وقد تراكمت هذه الظروف والأحوال وتراكبت، ومنها تنقُّله بين عمّان وبيروت ودمشق والمنامة والقاهرة والرياض، في العمل والزيارات والدراسة الجامعية (كان الناس قلّما يتنقلون في ذلك الزمان)، ومعايشة بيئة تلك البلاد ومجتمعاتها التي كانت تضطرم أولًا بالتطلع نحو مفارقة حياة الريف والبداوة، والاستواء مدنًا عصرية، وعقب حزيران 1967 بوعي الهزيمة وهشاشة مشروع النهضة والتحرر، والتماس الوسائل والمداخل لـ«تحرير الإنسان والأرض».

لم تكن تلك الأحداث الكبرى (تُضاف إليها التجربة المُرّة للوحدة بين مصر وسورية، وقد عاش تيسير فصولها في أثناء إقامته للدراسة في دمشق) سببًا مباشرًا بالضرورة، أو ربما لم تكن دافعًا رئيسًا للانعطافة الحادة في مزاجه، غير أنه وبما لديه من انشغال حميم بالشأن العام، وبما نُسب إليه من شعور بالصدمة الشديدة إزاء الاندفاع إلى المفاوضات عقب حرب أكتوبر 1973، في وقت كان فيه العقل السياسي القومي آنذاك يؤثِّم التفاوض مع العدو، فإن هذه التطورات المفصلية بما لها من انعكاس على عالمه الداخلي الصاخب والممزق، قد أفضت إلى الضغط على جهازه العصبي. ينقل الكاتب سليمان الأزرعي في مقدمته للأعمال الكاملة لتيسير سبول الصادرة عن دار ابن رشد (بيروت، 1980)، أن تيسير في الشهور الثلاثة الأخيرة من حياته نُقل من مكان عمله في الإذاعة، إلى مكتب معزول ومن دون أيّ مهام وظيفية، بينما كان يعاني من آلام في عينيه ويرفض في الآن نفسه تلقّي العلاج .

بهذا تجمعت الظروف المهنية والشخصية تحت سقف من اكفهرار الجو العام، وقد أدت بتيسير إلى قراره الأليم بمغادرة الدنيا ومَن وما فيها. وقد اختار لذلك أن يخرج من مقر عمله في دار الإذاعة الأردنية صباح 15 نوفمبر 1973، تمامًا مثلما يبرح شخص مكان عمله إلى موعد خاص شديد الأهمية، لا يسعه التخلّف عنه، فكيف إذا كان هو نفسه مَن تَخيّر لقاء الموعد، وحدّد له الزمان والمكان؟

ولأن الموعد ذا طابع شخصي محض، لم يُحِط تيسير أحدًا من أصحابه أو زملائه أو أفراد عائلته به، ولهم أن يعرفوا بعدئذ ما جرى في ذلك الموعد، وإلاَ انتهى. ولا شك أنها لحظة إبهار روائي تتوِّج رواية مفترضة، فقد أمضى تيسير في بيته بعض الوقت ضُحى ذلك اليوم منفردًا بصحبة شراب لا يستسيغه. وعلى الأغلب في غير مواعيد الشرب المعهودة له، ولم يكن الرجل مُدمنًا قط حتى يعاقر بنت الكرمة قبل الظهيرة. وقد بدا ذاك الشراب المحلي غير المرغوب فيه، نظيرًا وتكثيفًا لحياةٍ لم تعد تروق لصاحبنا ولم يعد يطيقها. وقد شاء أن يتجرع من ذلك الشراب الأحمر ذي الرائحة النفاذة، كيما يقف بصورة حسّية لا مراء فيها على طعم الحياة –حياته– غير المستساغ له. ويبدو أنه سرح كما هو متوقَّع مع تلك الرشفات الصعبة ولم يعد يشعر بجريان الوقت، أو أنه ذهب مع نفسه إلى مستهل غيبوبة الانتقال إلى العالم الآخر، فلمّا تناهى إلى مسامعه وسط شروده واضطراب مشاعره صوتُ حركة مفتاح في باب البيت، بما ينبئ بأن أحدًا من أفراد العائلة قد آب إلى المنزل، فقد تنبّه (وليته لم يتنبه) إلى أن الموعد المضروب قد امتدَّ به وطال بعض الشيء، وأنه على وشك نسيان الهدف من الموعد، فسارع إلى حمل المسدس الذي أعدّه لهذه الغاية ورفعه، وقام بتوجيهه إلى رأسه، وإطلاق النار على صدغه .

ربما كانت تلك أول رصاصة يطلقها الرجل الحالم وشديد الانفعال، وبالتأكيد هي آخر رصاصة. وقد بدا الأمر واضحًا لمن دخل البيت ورأى

إلى الدم النازف. فقد كان الأبُ والزوج منفردًا بنفسه. كان هو القاتل والقتيل بغير لُبس. وقد سُمع دوي الطلقة القاتلة منذ هنيهات. وها هو الرجل في هيئة مروّعة فظيعة لم يبدُ بمثلها من قبل، ولن يعود منها (الكاتب عدي مدانات مستذكرًا تيسير سبول في حوار مع جعفر العقيلي، صحيفة «الرأي» الأردنية، 19 نوفمبر 2016).

(2)

في رسائل نشرتها مجلة «نزوى» (أكتوبر 2006) من تيسير سبول إلى صديقه صادق عبدالحق، يَذكر الأخير في مقدمة التحقيق الصحفي الذي أعدّه تيسير النجار، أن تيسير أُدخل المستشفى في دمشق وكان آنذاك يدرس الحقوق في جامعتها، إثر محاولة انتحار وذلك في أعقاب صدمة شخصية. وهو ما ينبئ عن مدى حساسية الرجل، وسويدائه المقترنة بصلابته وبانفتاحه الشخصي، إذ لم يكن يحمل صفات الشخصية المنطوية التي تعاقر الأحزان والخيبات الذاتية وتنقطع عن الناس ولا تجد فيهم سلوى أو عزاء، بل كان شخصًا فكهًا وتواصليًّا، مع ميل إلى المزاج الحاد.. والراجح والغالب أن تيسير رأى مبكرًا إلى الانتحار فعلَ شجاعة وخيارًا ذاتيًّا جسورًا ورسالةَ احتجاج قوية، كما هي الحال مع المفهوم الياباني لقتل النفس بعَدِّه قرينةً على أعلى درجات الكبرياء، لا الانكسار. والرسائل مفعمة بترجيعات التوتر الذي كانت تزخر بها نفس تيسير في وقت مبكر منذ أواخر الخمسينيات ومطالع الستينيات، وكان في مقتبل

العشرينيات من عمره. مع تساؤلات حرّى عن جدوى الكتابة وغائيتها الغامضة، وعن جدل الكتابة والواقع.

غير بعيد عن ذلك تحدث الروائي والقاص فؤاد التكرلي في مقالة له في صحيفة «الشرق الأوسط» عن مراسلات متقطعة نشأت بينه وبين تيسير سبول بين الأعوام 1969 و1973. وكانت المراسلات الخطية آنذاك بين الأدباء أقرب إلى لون أدبي قائم بذاته، ويكتبها كاتبها وهو يستبطن الشعور أن الرسالة عُرضة للقراءة لاحقًا من آخرين ومن الأفضل أن يقرؤوها، ويتم فيها بسط الآراء والتعليقات على أمور ثقافية وعامة وشخصية. وعليه تجري العناية بتدبيجها، وبقدر من التنافس الودّي بين الكاتبين المتراسلين على فن الصياغة والسبك والصقل والنحت وبسط الآراء والاجتهادات بطريقة رشيقة وذكية. ولعله من المفيد في هذا الباب التذكير بأن مجلة «الأديب» اللبنانية كانت تفرد في الصفحات الأخيرة من أعدادها بابًا لرسائل متبادلة بين الأدباء، مما يمكن تصنيفه تحت بند «الرسائل المفتوحة».

وقد نشأت المراسلات بين سبول والتكرلي، إثر لقاء وحيد جمعهما في القاهرة، وتعاهدا -كما يبدو- على التراسل في ما بينهما. وكان التراسل آنذاك مصداقًا للمحبة ومن آيات الاحترام والرغبة في صداقة ثابتة مستدامة.

كتب سبول إلى التكرلي يقول في رسالة مؤرخة 14/ 7/ 1969: «هل تتساءل معي ما جدوى حياة الإنسان الذي خبر لذة الكتابة ثم يجد نفسه

عـاجزًا عنهـا. ليتـك تسـاعدني في بحـث هـذه القضـية. مـاذا سـنكتب؟ إن الكتابة أولًا وآخرًا وجهة نظر شاملة! ما حقيقة وجهة نظر الإنسان في ألف قضية مطروحة؟ هب أنه افتعل موقفًا إيجابيًّا، ما قيمته إذا لم يكـن سـلوكه إيجابيًّا؟».

وينقـل التكرلـي عـن رسـالة مـن سـبول مؤرخـة 16/ 1/ 1970: «لا أكتب، ولا أستطيع التفكير في الكتابة.. إن شعورًا حادًّا بعدم الاستقرار يستولي علَـيّ، وعبثًـا أحـاول في مثـل هـذه الظـروف النفسـية مـا يسـمى: الخلق».

الذات الممتلئة التي لا تطاوعها الذات الكاتبة دائمًا، هي أحـد مصـادر شقاء العيش وشـقاء الـوعي لـدى سـبول. وقـد عبّر عـن ذلـك في قصـيدته المريرة الأخيرة أجلى تعبير:

«أنا يا صديقي
أسيرُ مع الوهم، أدري
أيمّمُ نحو تُخوم النهاية
نبيًّا غريبَ الملامح أمضي
إلى غير نهاية
سأسقطُ لا بدّ، يملأ جوفي الظلام
نبيًّا قتيلًا، وما فاهَ بعدُ بآية».

ينبئ هذا المقطع الشفيف والكثيف عن:

استشراف النهاية القريبة لرحلة الشاعر والشخص، وبلوغ المعاناة الذاتية أوجها، لدرجة التصريح بالسير نحو تخوم النهاية، ما يجعل من حادثة الانتحار المريعة، تتويجًا لعذابات روحية كابدها سبول، ولا سبيل إلى تهدئتها أو إطفائها إلا بوضع نهاية للرحلة، وذلك كما بدا الأمر لصاحبه. وعليه، فإن فعل الانتحار لم يكن على غرار صاعقة في سماء صافية، إذ سبقت الصاعقةَ رعودٌ وبروقٌ وغيومٌ داكنة مدلهمة. وفي ذلك يقول عدي مدانات: «أما وقد انكشف المستور وقد أقدم تيسير على فعلته، فقد أدركنا جميعًا أننا كنا مقصّرين وقصيري النظر وأنانيين وآثمين في النهاية، ولا عذر لواحدٍ منا، وأخصّ نفسي بهذا الكلام أكثر من غيري، فقد أخذتُ من تيسير أكثر مما أعطيت». وهي شهادة أليمة وجارحة تنم عن مدى نزاهة صاحبها.

يتكرر نعت النبوّة في هذا المقطع الدالّ، فالشاعر يستشعر نبيًّا في إهابه، والكتابة لدى صاحبنا مهمة رسولية يجترحها «نبيّ غريب الملامح»، في دلالة فائقة على نموذج المثقف الرومانتيكي الراديكالي المفعم بالأحلام الكبيرة القصوى، وصاحب الكبرياء القومي الجريح.. هل في الأمر مبالغة؟ أجل، غير أن الشاعر والكاتب المرهف مُعتنق المشروع التحرري والنهضوي الفضفاض، يمتلك حساسة مضاعفة، وأحلامًا أكبر من غيره ترتدّ عليها الخيبات بكثافة أعظم، وهو إلى ذلك كله في عجلة من أمره ويضرب صفحًا عن مفهوم المراحل، وسُلّم الأولويات، ونضوج

الظروف «الموضوعية»، فتلك ربما هي عدّة السياسي وبضاعته، وليست ديدن «نبيّ غريب الملامح».

يستلّ الشاعر من ذات نفسه ناقدًا وفاحصًا ومحكّمًا على صنيعه الإبداعي، لدرجة يندفع فيها إلى تبخيس الإنجازات، والقسوة على الذات بما يضارع قسوة النسّاك على جسومهم وأرواحهم. فهذا المبدع يتبدّى في مرآة ذاته «نبيًّا قتيلًا» (الوصف لا يخلو من غرابة، وملتبس الإيحاء) و«لم ينطق بعد بآية».

(3)

في رحلته بحثه عمّا يروي غليل روحه، انفتح تيسير سبول على التصوف، قارئًا ودارسًا. ثم، مبرهنًا على حيويته العقلية والروحية وعزوفه عن الأدلجة، حاول أن يعايش تجربة التصوف وينخرط فيها إنْ وسعه ذلك، لائذًا بالشاعر أمين شنار الذي تقاسم معه جائزة صحيفة «النهار» عن الرواية عام 1968 (وشنار إلى جانب فايز صياغ وتيسير سبول من رواد الحداثة الشعرية في الأردن. انظر المقال الخاص بأمين شنار الذي تقدم في في هذا الكتاب). غير أن تجربة سبول في هذا المضمار لم تفلح، وظلت روحه تكابد النفي والقلق الممضّين.

(4)

من المفارقات أن تيسير سبول كان معجبًا بالشاعر خليل حاوي بين شعراء قلة آخرين، ويرى فيه أستاذًا ورائدًا. حاوي الذي يبشّر بمخاض النهوض العربي، ويعدّ من علامات الشعر العربي الحديث. مع ذلك، لا شيء يدل على أنه نشأت بينهما صداقة أو علاقة، أو أن التعارف الشخصي تم بينهما، رغم أن سبول كان يتردد على بيروت بعد هزيمة حزيران 1967 حيث يقيم حاوي. هذا مع عدم استبعاد ذلك بصورة قطعية. على أنه بعد تسع سنوات من مغادرة سبول للحياة منتحرًا، أقدم حاوي على الفعل نفسه. أقدم الأستاذ على ما فعله «تلميذه» بنفسه، بإطلاق النار على رأسه، وبغير مقدمات ظاهرة تنبئ بذلك. فهل نشأ بينهما تراسُلٌ روحيّ مكتوم؟

(5)

تيسير سبول بطل من ذلك الزمان. بطل تراجيديّ. لم تسعفه مواهبه وألقه الشخصي في النجاة من المصير الذي اختاره ورسمه لنفسه.

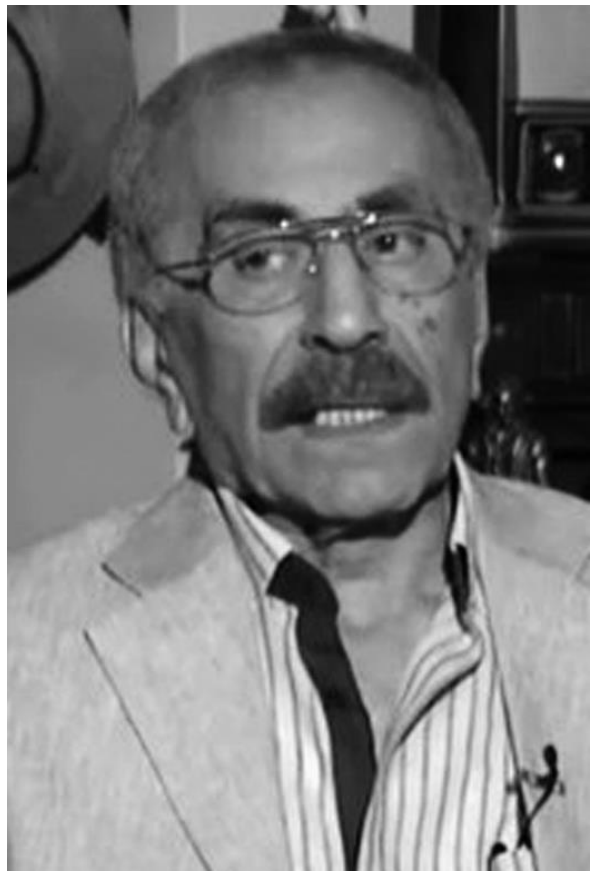

تحية إلى خيري منصور

أكلته الصحافة

غاب في عمّان الثلاثاء 18 سبتمبر خيري منصور، أحد أبرز الكتّاب العرب، ومن أكثرهم إخلاصا لهذه المهنة وانقطاعاً إليها ومواظبة عليها. وقد أورثته المهنة الشريفة صيتاً مستحقاً وطيّرت اسمه إلى الآفاق، وصنعت له جمهورا عريضا من قارئين شغوفين، ورغم أن منصور اتخذ الصحافة اليومية والأسبوعية منبرا لكتاباته، إلا إنه نجح في النأي بقلمه عن الأداء الصحفي المعهود، واحتفظ بأسلبة أدبية متينة وجزلة، هي أقرب إلى لغة الكتب والدوريات الثقافية المتخصصة. كانت الصحافة مسرح كتاباته، بدون أن تترك الصحف السيّارة التي تحتضن مقالاته، لا كبير أثرٍ ولا ضعيفه في صنعته الكتابية. ولعله قد انتهج في ذلك منهج أدباء «عصر النهضة» العرب في مصر ولبنان، كطه حسين وعباس العقاد وأمين نخلة ورامز سركيس وسواهم من الذين أقاموا على أساليبهم الكتابية، ولم يبرحوها لدى النشر في صحف يومية. وقد أضاف مسحة حداثية ورشاقة في العبارة وومضات من التجديد مع التخفف من الإنشاء، والنزوع إلى وضع قبسات وإحالات إلى أدباء ومفكرين عرب وغربيين، قدامى ومحدثين. وهو ما جعل مقالاته تبدو في أنظار المتابعين امتدادا واستئنافا لكتابة تتاخم الحداثة، وتحتفظ بعناصر النثر العربي ولا تنقطع

عنها بل تضيف إليها، بالعبور إلى منطقة الحداثة لكن دون الذهاب بعيدا، ومع التمتع برواء العبارة وسلاسة السبك، وبلمحات من ذكاء القلب ومكر العاطفة والطرافة المتأملة.

وإذ استهل خيري منصور (73 عاما) مسيرته محرراً ثقافياً في مجلة «الأقلام» العراقية، وكاتبا في ملاحق ثقافية لصحف عراقية في عقدي السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، فقد قادته الظروف بعد الاجتياح الأميركي للعراق للانتقال والعودة إلى الأردن وهناك أتيحت له في مقتبل التسعينيات فرصة العمل كاتباً في «الدستور» اليومية بدعوة من رئيس تحريرها محمود الشريف، ثم أن يكتب كل يوم بعد أن استشعر الشريف موهبته في الكتابة. وقد استجاب لهذا «التحدي الذهبي» بكتابة زاوية تحت عنوان «مألوف شديد الألفة وكثير الاستعمال» وهو «خاطرة». ولم تلبث الزاوية أن انتقلت من الصفحة الأخيرة (وهذه ليست الأخيرة في الأهمية، بل تكاد تكون في المرتبة الثانية).. إلى الصفحة الأولى، وكانت من المرات النادرة التي تتسع فيها الصفحة الأولى لزاوية يومية يكتبها كاتب «جديد»، شبه مجهول لعامة القراء.

منذ ذاك انعطفت مسيرة خيري منصور، إذ بات كاتبا منتظما ومحترفا، ولم تلبث صحف عربية أن اجتذبته إلى الكتابة فيها، وقد أجيز له ذلك من مقر عمله بعدما تبيّن أن كتابته في منابر أخرى لا تتم على حساب زاويته التي ينتظم في كتابتها محتفظة بالسويّة نفسها. هكذا وجد دون أن يقصد

وبغير أن يرتضي ذلك في دخيلته، وجد نفسه جنديًا نشطا ومعطاءً من جنود «صاحبة الجلالة». وهو آخر ما كان يتوقعه لمستقبل أيامه. فقد كان من رهط شعراء ونقاد تتمحور جل اهتماماتهم حول الشعر والشعراء ثم الأدب بعامة، ومدارس النقد مع نزعات فكرية غذّتها مصادر مختلفة من أهمها مجلة «الآداب» البيروتية ومطبوعاتها.، ولم تُعرف عنه ميول إعلامية ولا حتى مواظبة على قراءة الصحف، أو الانشغال بما تنشره عدا النصوص الإبداعية والمقالات الأدبية. وبدا أمام نفسه كمن يُستدرج للتخلي عن روحه الإبداعية والتفريط بها فداء لصحافة يومية لا تكف مطابعها عن الدوران، والتهام المزيد من جهد العرق والحبر والمكابدة. وإزاء ذلك صمد خيري منصور، لم يتحول صحفيا ولا حتى كاتبا صحفيا، بل احتفظ بسمته كاتبًا يكتب في الصحف، بلغة منقطعة عن القاموس الصحفي، وبمتابعات لا تُلقي بالاً إلى ما تقذفه وكالات الأنباء من أخبار وتقارير لا تتوقف.

وقد دارت اهتمامات مقالاته حول النهضة والنهوض الحضاري وجدل المفاهيم، ومقارعة التخلف والأمية بمختلف أشكالها، والأمراض الاجتماعية المزمنة والناشئة، وتناقضات الشخصية العربية، وتزييف الوعي، والصمود أمام زحف الغرب واجتياحه، والتحذير مما تسوقه الميديا من سلع مغشوشة لسياسيين ومثقفين، وكان بارعا في نحت

مصطلحات جديدة، متمتعا بنزعة هجائية هجومية لا تشمل أحداً باسمه أو ما يدل عليه بقرينة واضحة..

وإذ نأى بقلمه عن الأداء الصحفي محتفظا بلغة أدبية صافية رقراقة، فقد وفّر له لنفسه بموهبة الغنية، وبجهد شاق دؤوب، تمايزاً عن بقية الكتاب من معلقين ومحللين ومؤرخين وتربويين وسواهم. ولم تكن مقالاته تكتم النفورمن الصحافة ومن كتاباتها «المعلبة والمسلوقة» وتسويقها لـ«أشباه وأنصاف مثقفين».

وبحكم صداقة وثيقة ربطت كاتب هذه الكلمات بالعزيز خيري، فقد تمرأت حياته أمام صاحبها كمن وقع في مصيدة أو شرك، بعد أن أصبحت الكتابة مهنته التي لا مهنة له سواها. إذ أورثته هذه المهنة شقاء من نوع فريد، فقد سلبت منه وهو الشاعر شيئا فشيئا، جزءاً غير يسير من طاقته الشعرية التي تتسرب إلى نحو سبعين مقالاً يكتبها شهريا، وجعلت لاقطه الذهني متأهبا على الدوام لالتقاط فكرة للمقال الذي يتهيأ لكتابته بعد ساعات، وإثر مقال «سابق» كتبه قبل سويعات! وقد انعكس هذا على مزاجه الذي أخذ ينحو نحو التوتر والنقمة على مختلف مظاهر الحياة من حوله هنا وهناك. ولم يتوقف الأمر عند ذاك، إذ تنبه لمغبّة استغراقه وغرقه في الكتابة اليومية، واجتهد في توجيه نفسه وقلمه نحو كتابة مؤلفات، وقد وضعها ومن أهمها: «الاستشراق والوعي السالب»، «ثنائية الحياة والكتابة»، «أبواب ومرايا» و«تجارب في القراءة».

وبينما كان للصحافة فضل تقديمه إلى قراء العربية وبصورة لائقة تطمح إليها جمهرة كاتبين، إلا أن هذه المهنة قد «أكلته» في نهاية المطاف. وهو ما أورثه شعورا بـ«الكمد». فقد وجد نفسه، عبر هذه المهنة، وقد فقدها في الوقت ذاته. وقد تضافر ذلك مع مشاعر الإحباط إزاء ما آلت إليه أحوال العرب من انخساف واحتراب، دولاً ومجتمعات. وما صارت إليه الثقافة من تسليع وتفتيت وخلط للحابل بالنابل وضياع المعايير واستقالة النقاد. فقد كان خيري المنتسب إلى جيل الستينيات من الحالمين الكبار في تلك الحقبة التي امتدت زهاء ربع قرن، بنهوض عربي شامل، وقد شاءت له ظروفه، التأمل المضاعف والأليم بما انتهت إليه الحال: مرة كشخص ومواطن، وتارة ككاتب يومي وشاعر مكبوح، وطوراً كمشروع مفكر لا تسعفه مهنته في القراءة والتبحر والتدبر، وهذا هو الثمن الذي ظل يدفعه وينزفه بصمت، لقاء تحقيق المتعة والبهجة العقلية لقارئه.

22 سبتمبر 2018

لا مراثيَ لخيري الجميل

مبكراً، اشتبك الشاعر والكاتب خيري منصور(1945-2018) مع إحساس باهظ بلعنة تحوم في الأجواء من حوله أنّى أقام وأنى ارتحل، لعنة تبث سمومها الخفية إلى قرارة النفس، والى تقلبات المزاج وأحوال

البدن. وكان لحساسيته الفائقة ولثقافته الواسعة أن رفدتا ذلك الهاجس الوجوديّ الذي رافقه، والذي امتزج مع شعور عميق ومرير بالخسران الدائم، فقد خسر منذ البدء قريته الوادعة دير الغصون بمفارقته للطفولة والصبا، ثم بوقوع تلك القرية وبلاد التين والزيتون، بلاده، كلها، تحت نير الاحتلال الصهيوني. ومما يورده في كتابه الشيق «صبي الأسرار» وهو كتاب في السيرة الذاتية (وزارة الثقافة الأردنية 1993) أن أمطارا غزيرة طال أمدها شكّلت سيولا هائلة في قريته وأغرقت ثلاثين رجلا وامرأة بينهم عريس وعروسته، وأن تلك الذكرى القاسية انطبعت في ذاكرته وصاحبته مدى حياته، وجعلته يمقت فصل الشتاء وهطول الأمطار، وذلك خلافا للصورة العامة التي تقرن المطر بتجدد الحياة أو بكلمة «خير» التي يرددها أهل بلده لدى استقبال الهطل المدرار. وتتمثل اللعنة بعدئذ أنه بات محروما من زيارة مسقط رأسه رغم الذكريات القاتمة التي تختزنها ذاكرته عن قريته التي فقدها، كما فقد أبناء شعبه آلاف القرى والبلدات والمدن التي استولى عليها «أحفاد ضحايا المحرقة النازية» واقتلعوا أبناءها.

والإحساس الدائم بالفقدان هو أحد أذرع اللعنة التي حاقت به، كما بسواه من مبدعين مطرودين من نعمة الراحة وجنة الطمأنينة ولا سبيل لاستعادة تلك النعمة، أو العثور على بوابة تلك الجنة الأرضية. وهو ما يفسر ولو جزئيا نبرة الغضب التي اعترت مزاجه، واتشحت بها مقالاته

على مدى ربع قرن تقريباً، بدءاً من العام 1992 في عديد من صحف العواصم العربية. من دون أن يكون باعثه ذاتيا محضا، فقد امتلك خيري منصور انشغالا حميما بالشأن العربي العام، وأفقاً قومياً للتفكير والتنظير، وقناعات قومية راسخة لكن بغير أدلجة ظاهرة على الأقل، وبدون انتساب أو حتى قربى فكرية إلى مدرسة سياسية أو حزبية، وقد نجح خلال إقامته في العراق منذ أواسط سبعينيات القرن الماضي إلى ما قبيل سقوط بغداد، في أن ينجو من غوايات السلطة وإكراهاتها. وساعده على ذلك ما يبدو عليه، من خارجه، من نزعة مثقفة نخبوية ومتخصصة تجعله بمنأى عن التحزب والسياسة اليومية، وهو ما ظفر به قبل ذلك مواطنه جبرا إبراهيم جبرا، الذي ظل بمناى عن التجاذبات السياسية وتضارب رياحها في بلاد الرافدين حيث أقام على مدى أربعة عقود تقريبا. ويروي عنه احد أصدقائه (محمد كعوش، «الرأي» الأردنية، 19 سبتمبر) أنه بكى حين توفي الرئيس جمال عبدالناصر، كما بكى حين سقطت عاصمة المأمون. وذلك من جملة أربع مرات استسلم فيها خلال حياته لغريزة البكاء. وبهذا فإن بكاء الرجل اقترن بتطورات عربية، خارج وطنه الأم وأحوال عشيره.

من المقاطع الدالة على الشعور الفادح باللعنة، تلك التي استهل بها قصيدته «قبل الأوان» في ديوان «لا مراثي للنائم الجميل»:

«سوف أوقن يوماً بأن الذي

ضاعَ.. ضيعْتُهُ للأبدْ
وسأوقن حتماً بأني أخطأت باب الدخول
فالشكوك القديمة كانت كفيض الجسدْ
والتردد.. كان ابتداء القبول
كان حبلاً يحزّ الخطى.. من مَسَدْ».

يعترف الشاعر بسطوة «الشكوك» عليه، بجنوحه إلى «التردد» قبل الجهر بالقول، واعداً نفسه بأنه سوف يوقن من ذلك ذات يوم، فالشاعر هنا التزاماً بداعي الصدق حتى أقصاه، يبدو متردداً في الاعتراف بتردده! رغم ثقته أن الشكوك هي زاد المبدعين والمفكرين، بل هي بعض من جبِلَّتهم ونسيج أرواحهم، ومن الطبيعي أن تقود الشكوك إلى التردد، فالمبدعون لا يجنحون إلى ترديد الأجوبة، وبخاصة الجاهزة منها. وفي اعتصامه بالتأمّل، سعى خيري منذ بواكير حياته لأن يجترح ذات نفسه، بعيدا عن التنميط والقولبة العامة، وإن ادّى ذلك إلى دفع أثمان اجتماعية، وهو ما يروي بعضه في كتابه «صبي الأسرار»، فقد دفع مبكرا ثمن لجوئه إلى التأمل، بالإحساس المرير بالاختلاف الذي يحرمه من هناءة الحياة الخفيفة واليسيرة. وقد ظلت مثل هذه المشاعر العميقة تلازمه في الحل والترحال، وهو الذي طاف مقيما بين دير الغصون وعمّان والقاهرة والكويت وبغداد. وما كان للاستقرار المعيشي والوظيفي ولا حتى لـ«النجاحات» أن تحد من مفعول تلك الهواجس، بل إنها قد زادت منها،

ومن يقرأ مقالاته المفعمة بالنقمة والهجاء، والتي تستبطن التأمل، والتقاط مظاهر الأعطاب والخراب في أحوال الأمة والبُلدان والمجتمعات، يلمس مدى خيبته من الشأن العام والمجتمعي ومن أداء النُّخب، بما غذّى لديه حال السويداء التي رافقته منذ سني صباه ويفاعته مثل ظله، وهو ما عبّر عنه بكلمات تنضح بالمرارة وبالجدّة التعبيرية، في شهادة إبداعية له: «نحن جيل لم يولد حتى هذا المساء بما يكفي لأن يصبح ابناً أو حفيداً لأحد. إننا نبتكر آباء من هذا اليُتم المزمن، وأحياناً نبتكر أمهات من نشارة الخشب، أو سلاف الزيتون». هذا رغم أن خيري لم ينشأ يتيم الوالدين أو أحدهما. لكنه فارقهما في مقتبل شبابه لدى التحاقه بالدراسة الجامعية. غير أنه يتحدث عن يُتم مركّب، يلازم صاحبه حتى وهو ينعم بالدفء العائلي، بجوار أحد الوالدين أو كليهما، ولا ينبثق من فراغ عائلي أو عاطفي، بل من مكابدة النفس إزاء أشواق حرّى نحو الغامض المستتر، ومن فقْدٍ واضحٍ ومبهم، وعاطفة مكتومة نحو حياة محلوم بها ومتخيلة، يتعذر استحضارها ويتعسر استجلاؤها.. لهذا يواكب الموتُ الحياة، ويختلط بها في دخيلة الشاعر، كما يختلط إهاب النساء بالرجال في دوامة تراجيدية، وينوء الشاعر بحمله الثقيل: «ثقيل حِملنا/ التوابيت مرصّعة وموتانا نائمون/ أودعتنا النساء أجنّتهن، والأرض أثقالها»، (قصيدة «مهلك يا بحر»، «الأقلام العراقية»، أكتوبر 1982).

لخيري منصور تسعة إخوة، أحدهم الشهيد نشأت الذي قضى في البقاع اللبناني في سبعينيات القرن الماضي. كانت ولادة الإخوة سهلة، ينزلق واحدهم من الأصابع على ما أحاطته به أمه، وعلى ما يروي في «صبي الأسرار»: «أما انت فكنت أشَدّك من الموت بيد، وهو يشدك باليد الأخرى»، حتى إن أمّه لعارضٍ صحي لم ترضعه، وقد تولّت ذلك عائشة الغجرية «إن شيئا من الحليب البري قد تسرب إلى دمك» هكذا صارحته أمه، وكانت تداعبه بـ«يا ابن الغجرية»..

واقع الحال أن تبعات الكارثة الفلسطينية كانت أكثر ثقلا وأشد وطأة على المشردين في خيام اللجوء (وهو ما يفسر انطلاق الثورة المعاصرة من المخيمات)، فإن الثقل أو الرزء كان مضاعفا على نفر من مبدعين يتمتعون بحس تأملي وجودي عميق، من أصحاب الأرواح المشردة، وخيري منصور أحد أبرز هؤلاء، مما جعله ينوء تحت ضغط التشريد مرتين. مرة بصفته إنسانًا ذا وعي مرهف بكينونته وبشقاء المصير البشري الفردي، ومرة بانتسابه إلى وطن وشعب تكالبت عليه الصهيونية ومن يوالونها. وهذا التشريد المزدوج ألقى بكلكله عليه، وقد تبادل مصدرا التشريد تغذية أحدهما الآخر، ومضاعفته في وعي الشاعر ولاوعيه. وهو ما برع في تجليته محمود درويش في قصائده الأخيرة وبالذات قصيدة «لاعب النرد»، علمًا بأن شعر درويش ازداد كثافة وشساعة مع بدء

مزاوجته بين هواجس الكينونة الوطنية والوجوديّة منذ ديوانه «أحبك أو لا أحبك».

أما خيري فقد اجتمع رهانه على الكتابة (مقالاتٍ وأبحاثـًا) وعلى الشعر معا، خلافًا لدرويش الذي أخلص الإخلاص كله للشعر، وانقطع إليه انقطاعا تاما. لهذا افتتن خيري الموزع بين النثر والشعر بدرويش، غابطًا إياه على صنيعه الشعري الذي أوقف حياته وجُماع طاقته الإبداعية والروحية عليه، وبغير تردد. وقد نشأت بينهما صداقة وثيقة في السنوات العشر الأخيرة من حياة درويش التي أقام خلالها في عمّان. ولدى فوز خيري منصور بجائزة الصحافة العربية في حقل المقالة (2005)، وفي حفل تكريمي أقامته صحيفة «الدستور»، شارك درويش بتكريم منصور، وحيّا صديقه الكاتب المُحتفى به بكلمات عذبة: «إنك فنجان قهوتنا الأول.. لا نبدأ نهارنا إلا بك.. أحببناك وأدمنّاك، وكم تبدو تقليديـًا، يا خيري، وأنت تدافع عن حق العرب في الهواء والغنائية في الشعر، لكي لا أقول: عن فلسطينهم ووعيهم لذاتهم، وعن غد يؤجله حاضرهم إلى أجل غير مسمى، وتطرده تبعيتهم إلى زمن مائع، لا ماضيه يمضي، ولا مستقبله يلوح ولو من بعيد».

يا لمحطات الموت والفجيعة كيف تُسلّم واحدتها للتالية! فحين نعى الناعي محمود درويش، بكاه خيري منصور وكانت تلك هي المرة الثالثة في حياته التي يبكي فيها، وشد رحاله من القاهرة عائدا إلى عمّان، وكتب

مقالته القصيرة تحت وطأة الصدمة بعنوان «لكل منا محموده» وورد فيها: «كانت زوجتي تدرك جيدا أنني لن أحتمل ذلك الرحيل وحيدا في القاهرة، فأعدت لي مفاجأة لعلها رد حاسم على الموت، ففي صبيحة اليوم التالي دق جرس الباب، وجدت أمامي حفيدتي التي عمرها شهور ولم أرها من قبل، وحين احتضنتها أحسست أنها تحملني، وتمنيت لو أن محمود حي لأقول له بأن حفيدتي هي جدّتي!». هكذا تتناسخ الأرواح ويتناسخ النسل ويتبادل المواقع في مرآة الشاعر الكاتب، فإذا الحفيدة جدة، وإذا بالجد حفيد.

ولأن لخيري أكثر من حفيد ولا يقتصرون على تلك الحفيدة الوليدة، فقد شاءت المصادفات أن يتفاجأ ذات يوم لدى عودته إلى المنزل، بعدد من هؤلاء وقد احتلوا في غمرة اللعب سريره وتمطوا على فراشه. أثار المشهد أعمق شجونه، ووجد نفسه (وفق مقال كعوش الذي سبقت الإشارة إليه) وقد اندس بينهم وغشيته نوبة من بكاء مرير، وكانت تلك هي المرة الرابعة والأخيرة التي بكى بها. ولعل خيري قد أصغى لحظتها، في دخيلته لهاتفٍ يهتف به، أن حياته في سبيلها إلى الانقضاء، وأن الحضور المشع لهؤلاء الأحفاد، قرين على ذبول حياته وانطفائها، وأن احتلالهم البريء لسريره، لتذكرةٌ له بأن الحياة برمتها لا سريره فحسب، لم تعد تتسع له ولا تفسح له مكانا فيها.

وها إنه قد وجد له في نهاية المطاف، وهو الساهر الأبدي، متسعاً على سرير الأبدية، «ولا مراثي للنائم الجميل»، لا مراثي لخيري الجميل.

(رحل الكاتب والشاعر الفلسطيني/ الأردني خيري منصور عن دنيانا في الثامن عشر من سبتمبر 2018 في عمّان عن 73 عاماً، إثر مرض عضال لم يُمهله طويلا).

مؤلفاته الشعرية: «غزلان الدم»، «مراثي للنائم الجميل»، «ظلال»، «التيه وخنجر يسرق البلاد»، «الكتابة بالقدمين». «ثرثرة بيضاء»، «نعاس أزلي» و«سيرة خاطفة».

في الدراسات والأبحاث: «الكف والمخرز»، «أبواب ومرايا: مقالات في حداثة الشعر»، و«تجارب في القراءة»، «الاستشراق والوعي السالب»، «العصا والناي»، و«ثنائية الحياة والكتابة».

فبراير 2019

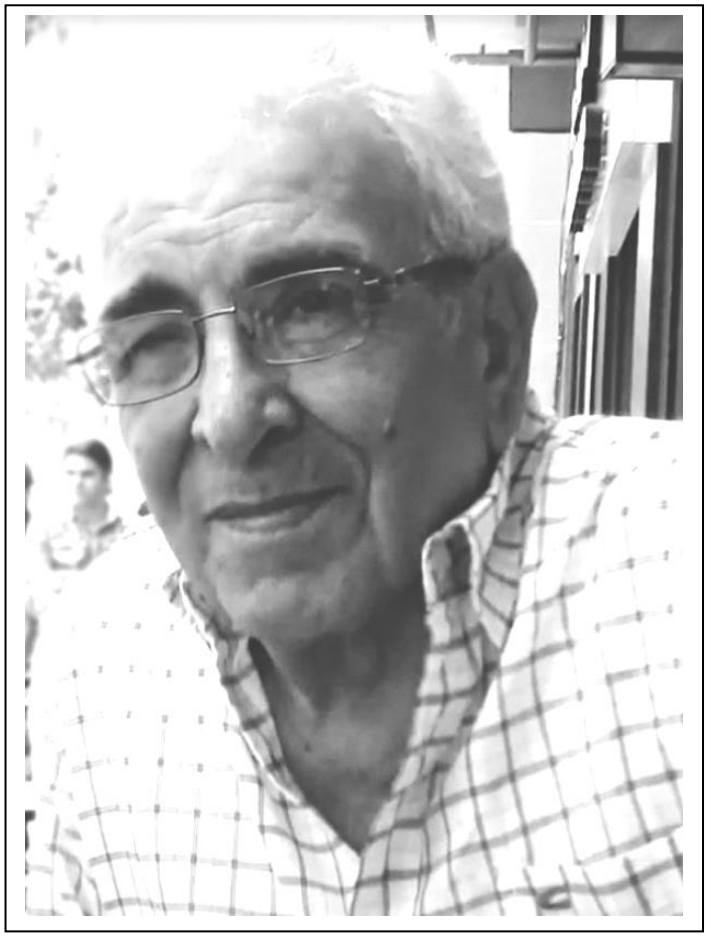

رسمي أبو علي..
مبدع كرّمته المقاهي التي أحبها تحية وداع وقصة

رحل رسمي أبو علي عن 83 عاماً بالإيقاع نفسه الذي أمضى حياته فيه: بهدوء وبطء، بغير بهرجة أو ميلودراما، بمرح دائم ممزوج بأسى شفيف مترفّع، وباندهاش دائم من لعبة الحياة والموت التي يتورط فيها المرء رغما عنه، وقد ظل يداوم على الحضور في الفيسبوك ما وسعه ذلك وحتى أيامه الأخيرة، آملاً أن يحالفه الحظ بالبقاء حتى أبريل المقبل، وعندها سوف «ينفد» (ينجو).

ولئن عُرف بتواضعه الجم فإن ذلك لم يسلب منه اعتداده بنفسه وموهبته، وهو ما لا يملك المبدع التخلي عنه، ليس من اجل توازن نفسي ضروري فحسب، بل كي يحتفظ أيضاً بطاقته الإبداعية ويتمكن من إطلاقها. فبغير الثقة الأكيدة بالذات المبدعة لن يكون بالوسع الوفاء لهذه الذات وتجاوزها. على أن كسلاً ذا قماشة فلسفية أصاب صاحب «قط مقصوص الشاربين اسمه ريّس» في العقدين الأخيرين من حياته، كسل مع ازورار عن المجتمع الثقافي، الذي يتدافع أعضاؤه نحو الأضواء والاستعراضية. علاوة على ضيقه الشديد من مساومات أصحاب دور النشر، فكان أن أقلع عن الكتابة بعد صدور كتابه الأخير «ينزع المسامير

ويترجل ضاحكًا» كي يضمن عدم الاحتياج إلى ناشر، ولأن «الشغلة مش جايبة رأسمالها» على حد قوله! وعاد إلى سيرته الأولى ربما في مطلع شبابه بملازمة المقهى. مقهى شرقية تعِجّ بدخان السجائر والأراجيل، وتضج بالأصوات الذكورية الخشنة، ويتجاور فيها بسطاء الناس ويتعارفون وينخرطون بحماسة في لعب الورق أو الطاولة (طاولة الزهر – النرد). وقد انغمس رسمي في اللعب وبات مدمنا عليه. متفاديا ضروبًا أخرى من الإدمان يقع مثقفون في حبائلها. وبقليل من التمعن وبمضاهاة إبداعه بنمط حياته ويومياته، فقد كان رسمي يجد في المقهى ملجأ ميسوراً وآمنًا للتفلّت من ضغط نزعة عدمية، تتلبسه آناء الليل وأطراف النهار، فيهرب من ذات نفسه الأمّارة بالقلق، إلى صخب المقهى، ويصادف في الرواد الغرباء ألفة يفتقدها ربما لدى كثيرين ممن عرفهم ويعرفونه.

ومع ذلك كان ينجح في التسلل من المقهى ساعة مساء لمرة أو مرتين في الأسبوع إلى مناسبة ثقافية ما في المركز الثقافي الملكي أو دارة الفنون أو رابطة الكتاب أو سواها. وبهذا لم ينقطع عن الحياة الثقافية رغم مواظبته على ارتياد المقهى (الأوبرج، قبل أن ينتقل إلى مقهى الكوكب في وسط العاصمة عمّان).

بعد أن أقعده المرض طيلة النصف الثاني من العام الماضي 2019، لم يفتقد شيئا مثلما اشتاق للمقهى وأجوائها. ومقاهي وسط عمان تقع عادة على الطابق الثاني (أو الأول فوق الطابق الأرضي) مما يتطلب صعود

الادراج. وبمعاونة أهله الأقربين، لا بد، أمكنه الوصول إلى المقهى ذات يوم في خريف العام المنصرم. ويبدو أنه ذهب في غير الأوقات المعتادة لذهابه، فلم يجد أحداً من رفاق اللعب وجلس وحيداً. وسأل عن أحد الرواد الذي كان يداوم على المجيء والجلوس منفردا، فقيل له إن يد المنون قد اختطفته، فاغتم غمّا شديدا. ورأى في ذلك نذير شؤم. وللأسف لم أعثر في صفحة رسمي على صورته الأخيرة في المقهى التي كان قد وضعها في حينه. بينما وجدت صورة لتكريم مقهى الأوبرج له. لقد كرّمته مقهى بأكثر وأفضل مما أنصفته هيئات معنية بالثقافة والابداع.

القصة التالية (من يموت أولاً) لكاتب هذه الكلمات، تستوحي يوميات رسمي في المقهى، ويجدر نشرها بمناسبة رحيله، بعد ان نُشرت سابقا على أضيق نطاق إلكتروني، تحية متجددة لهذا السارد والشاعر الإنسان الذي ابتعد مبكرا عن «وليمة الحياة»، إلى ركن صغير في مقهى يستمتع فيه بأبسط مظاهر الأنس وجولات الفوز والخسارة.

11 يناير 2020

من يموت أولاً[1]

بتواضع جم وصراحة غير مألوفة لا يجد رسمي ما يميزه عن زملائه اللاعبين الثلاثة، سوى أنه أكثر حذاقة من بعضهم بدليل النتائج التي تنتهي إليها جولات لعب الورق، وسوى ذلك فهم زملاء طيبون، ولاعبون محترفون يطيب له اللعب معهم دون سواهم، وبصورة شبه يومية في المقهى الكائن في قلب عمان القديمة بين السادسة مساء والعاشرة ليلاً، وعلى الطاولة البلاستيكية نفسها التي تتوسط المقهى الفسيح مقابل المدخل.

ليسوا أصدقاء طفولة، ولا زملاء دراسة أو وظيفة معه، بل هم ببساطة رفاق المقهى وأصدقاء لعب الورق، وليس معلومًا كيف تعرف إليهم، ولو سُئل هذا السؤال لانفجر ضاحكًا، وقال:هل تراني تعرفت على عمرو دياب أو بيل غيتس أو خافيير سولانا حتى يملأك الفضول لمعرفة كيف تعرفت إليهم؟ الشغلة (المسألة) رأسمالها توجيه سؤال إليهم مثل: بِدكم (تريدون) لاعب رابع؟ فيجيبون بالإيجاب وأنضم إليهم، وتتكرر المواعيد ويتحول الأمر إلى عادة، ثم إلى ما يشبه الصداقة.

أجل إلى ما يشبه الصداقة كما قال، ذلك أن علاقته بهم التي بدأت في المقهى قبل سبع سنوات تنتهي بين جدرانها الحائلة، وتحت سقفها العالي، وتكاد تنقطع خارج هذا المكان، فهو بالنسبة إليهم رغم الاحترام

(1) من الكتاب القصصي «سحابة من عصافير»، دار الساقي، بيروت، 2005.

الذي يمحضونه إياه لما يتسم به من وقار ومن سمت الأستذة، هو في النهاية لاعب رابع يشاطرهم أوقات التسلية، وينازعهم الفوز، ولا يخلو من ملعنة اللاعبين، مما يوجب الترحيب به دائما على طريقتهم وكذلك التوجس منه.

وإذ يغمر الضجيج وكذلك سُحب الدخان والأراجيل أجواء المقهى الشرقية، فقد اعتاد رسمي تحمّل ذلك، مُنوّهـًا لأصدقائه الذين لا يترددون على هذا المكان، ويتسللون إلى حانات مجاورة، بأن هذا الصخب يظل أقل وطأة وحِدّة من ذاك الذي يملأ رأسه، لذلك فإنه يستهون أمره بل يجد فيه بعض فائدة، إذ يؤدي إلى امتصاص ذلك الصخب الذي يُدوّم كالدوامات في الرأس.. في رأسه الذي يمكن استبداله برأس آخر كما ألمح ذات مرة في إحدى قصائده.

يزاول رسمي اللعب بجدية بالغة واستغراق شبه تام إن لم يكن تامـًا، إذ إن التوفيق في اللعب يمنحه الشعور بالرضا عن النفس، ويشحنه بالتفاؤل فيَسَعه بعدئذ في نهار اليوم التالي، أو ما يتبقى من ساعات الليل، أن ينجز واجباته بنشاط وبذهن صافٍ بما في ذلك واجب الكتابة، أما إذا خانه الحظ، أو وقع في أخطاء مهلكة نتيجة السرحان فإنه يستخلص من ذلك العِبر المفيدة، كأن يدرك استسلامه لضعف التركيز، أو اجتياح مؤثرات خارجية ليقظته الذهنية رغم الحواجز التي يضعها أمام هذه المؤثرات، هذا مع إدراكه حق الآخرين في الفوز أحيانـًا، وإلا فإنهم قد يتوقفون عن اللعب إذا كان الحظ يُعاكسهم على الدوام. على أن رسمي بخبرة سنواته

الست والستين، يدرك أن الأمر يتعدى التمتع بالحظ أو الحرمان منه، فهناك مناورات اللعب كالتقديم والتأخير، وهناك التمثيل كالظهور بمظهر يُربك اللاعب الآخر، فلا يدري نيات خصمه، وهناك المهارة في اختيار ما يتبقى من أوراق في اليد فلا تكون هذه «محروقة»، أو تجمع حصيلة كبيرة، وهناك تكتيك الفوز بضربة قاضية، أوعلى دفعات بحسب مقتضى الحال.

وفي جميع الأحوال فإن «موازين القوى» على حد تعبيره، استقرت لمصلحته منذ أمد طويل، فهناك لاعب ممتاز هو أبو أحمد مساعد المقاول، وهو من يحسب له حسابًا، وهناك لاعب جيد هو أبو فراس الحلاق لكن ثقته المفرطة بنفسه تودي به إلى المهالك، وهناك أبو سمير موظف الضريبة المتقاعد، وهو لاعب جيد بدوره لولا أنه يكثر من حساباته، فيقع ضحية التردد والتغيير الدائم لتكتيكاته، وأيا يكن فإن الفوز في هذه اللعبة وتسمى «الهاند»، لا يتطلب بالضرورة تحقيق نتائج باهرة كاحتلال المركز الأول، إذ يكفي أن يحوز المركز الثاني وحتى الثالث كي تحيق الخسارة بصاحب الترتيب الرابع وحده، الذي يتكفل بدفع أثمان المشروبات، وهذه تتراوح بين القهوة والشاي والكاكاو والببونج واليانسون والقرفة بالجوز والمشروبات الباردة لـ «الطاولة»؛ أي لأربعتهم.

ينظر رسمي إلى هذا النشاط شبه اليومي بصورة شبه قدرية، إذ ليس له عمل في النهار يستنزف طاقته، فهناك ساعات طويلة ينفقها في القراءة والكتابة والإصغاء لأخبار الراديو والتلفزيون، والتأمل المسترسل في

أحوال العمر والزمن، ولما كانت أسباب الإثارة قد انقطعت في حياته، ولم يعد هناك متسع لصداقات يومية، فقد صادف في لعب الورق سلوى مناسبة.. تقليدية نعم، لكن من قال إن حياتنا ليست تقليدية وبليدة، ولأنه يُحب ويتعلق بوسط البلد منذ أكثر من خمسين عامًا، فليس غريبًا أن يتعلق بمقاهيها، فهي من أكثر الأماكن التي يشعر المرء (رسمي) فيها بالراحة، ومن أقل الأماكن التي لا يشكو فيها من الوحدة حتى لو كان بمفرده، إذ يسعه تبادل التحيات وأحيانا الحديث وحتى التعرف على آخرين، وعقد صدقات مع صاحب المقهى والنُدُل، الأردنيين منهم والمصريين، ويكفي حمل الصحيفة مثلاً حتى ينال الزبون الاحترام الذي يتوق إليه في مكان لا يخلو من شبه الأميين.

خلال عشرين عاما مضت طوّف رسمي في بلدان شتى، وأقام في بيروت والقاهرة وبرلين بضع سنوات، وذلك لأسباب سياسية ومهنية تتعلق بعمله الإذاعي السابق، وما إن عاد إلى عمّان حتى هاج في داخله حبه الأول لأسواق البلد والمشي في شوارعها وأزقتها (دخلاتها بحسب المسمى الشائع)، وتحسس نبض الحياة في زحامها، مع اختلاط الأصوات والروائح ودعوات الباعة لتذوق الأطعمة والمشروبات، وكذلك مطالعة الصفحات الأولى للصحف المفرودة أمام أعين القارئين والفضوليين، وهذا الإشباع أو أقله إثارة الحواس هو ما يفتقده في أنحاء عمان الجديدة، ومن دواعي الأسف أن الأصدقاء القدامى الذين كان يلتقيهم بغير ميعاد، قد هجروا وسط البلد التي كان المشي في أرجائها بمثابة نزهة المشتاق

اليومية حتى أواسط الثمانينيات، تاريخ عودته إلى عمّان، وبالنسبة إليه فإنه لم يفقد هذه المتعة، وإن كانت حماسته قد فترت، وهو ما حمله على الذهاب إلى عمق المقهى قوي الإضاءة كمن يعود إلى بيته الأول. بهذا بدأ ثم اشتد تعلقه بلعب الورق غير آسف ولا آبه بما يجري خارج المقهى في ساعات الأماسي.

قلما يتحدث رسمي لأحد عن نشاطه شبه اليومي هذا، إذ يحتاج الأمر إلى شرح دائم ومُضنٍ حول مسوغات الانصراف إلى لعب الورق، وعن مفهوم تبديد واستثمار الوقت وطبيعة النشاط المفيد وغير المفيد، ولماذا يختار لاعبين من خارج «الوسط».. وسطه، للعب معهم، إذ هم غرباء لا يعرفهم ولا يعرفونه. مع ذلك يمضي معهم دون تردد زهاء أربع ساعات في اليوم الواحد، وحتى لا يضع نفسه في موضع الدفاع عن نفسه، وحتى لا تثور انطباعات بأنه شخص غريب الأطوار رغم إقراره أنه يتمتع بقدرٍ من غرابة الأطوار.. لهذه الأسباب وغيرها يدلف إلى المقهى، وينسل منها كمن يقوم بنشاط سري يستحق التكتم عليه، إلا إذا سُئل من أحدهم عما إذا كان حقًا ينصرف إلى ما ينصرف إليه من الدوام المسائي في المقهى، فعندها يجيب بالإيجاب باقتضاب وهدوء شديدين، وبنبرة ملؤها الثقة والقناعة، تاركًا سائله يتخبط في فضوله، ويتشكك في أي النشاطات أجدى للمرء وأكثرها مجلبة للمتعة، وهو لا يدعو أحداً من أصدقائه إلى المقهى للمشاركة في اللعب، فلا هم يرغبون في ذلك، ولا هو، واللعب مع غرباء أمتع على أي حال كما يقول، حيث لا محل للمشاعر والعواطف أو

الأفكار المسبقة عن الآخر بين اللاعبين، ولا يولّد الفوز أو الخسارة أي تداعيات على العلاقات الشخصية التي لا وجود لها بين اللاعبين الأربعة، ومعهم ذلك الخامس الاحتياطي وهو الحداد بهلول الذي «يضرب الحديد وهو حامي»، والذي يسد فراغ غياب أحد اللاعبين ويحل محله، خاصة رسمي الذي يغيب أحيانا لمشاهدة أحد أفلام المهرجانات السينمائية، أو لحضور أمسية جرت مهاتفته لحضورها، أما مع اكتمال عدد اللاعبين فإن بهلول يكتفي بالفرجة دون تدخل، وفي الغالب فإن طلبه أي مشروب يكون على حساب الطاولة، وبهلول ليس اسمه إذ إن اسمه إبراهيم، وقد جرى إطلاق اللقب عليه عقاباً على تطفله الذي أصبح في ما بعد مقبولاً كأمر واقع، إضافة إلى جهوزيته للانضمام إليهم غبّ الطلب، دون أن يفارقه لقبه الذي حل محل اسمه، وقد تقبله في البدء على مضض قبل أن يأنس به، إذ إن اللقب يثير انشراح أربعتهم الأكبر منه سنا والأفهم منه، وبهذا فقد كان التنازل منه بقبول اللقب هو تذكرته بطاقته للانضمام إليهم، ومثل هذه الأمور تحدث بين رواد المقاهي الشعبية بقدر من الأريحية.

لقد أدت مواظبة رسمي على الالتحاق بالمقهى إلى انتظام حياته بصورة معقولة، إذ إن ساعات المساء بطيئة ثقيلة، حتى إنها تجثم كالرصاص على الصدر إذا لم يجرِ شحنها بقدر من الإثارة حتى لو كانت هذه نمطية، وهو ما يوفره الاستغراق في اللعب، ومجالسة أشخاص لا ينتظرون منك شيئاً سوى أن تشاركهم اللعب بأمانة واحترام، فيطرح كل

منهم عن نفسه عناء التفكير بعض الوقت في ما لا جدوى من إعادة التفكير به، ويُمضي وقتًا ممتعًا وسريعًا إلا إذا تتالت الخسارات، كما وقع كثيراً لأبو فراس الحلاق الذي يصغر رسمي بسنتين أو ثلاث سنوات، لكنه مع أناقته يبدو أكبر منه بالقدر نفسه من السنوات، وفوق ذلك فإنه أخرس تصدر عنه أصوات مبهمة يدرك معناها زبائنه وزملاؤه في المقهى، وقد حدث أن أوقع به المرض وأقعده الفراش، ولم يتيقن رسمي إذا كان من واجبه زيارته في البيت أم لا، وذلك بالنظر إلى محدودية العلاقة به خارج المقهى، حتى إنه لا يحلق شعره الرمادي عنده، بل في صالون حلاقة قريب من مسكنه في الأشرفية، ولم يكن موقف الزميلين الآخرين أقل التباسًا فقد غرشا؛ أي تجاهلا الأمر، على أمل أن يعود أبو فراس في وقت قريب، وكان بهلول هو الوحيد الذي زاره رغم أنه لا يفهم عليه، وقد خشي رسمي حتى كاد يشعر بالذنب.. خشي أن تكون الخسائر المتتالية التي لحقت بأبي فراس في الأسابيع الأخيرة قد أضعفت معنوياته، فتمكن منه مرض السكري ومرض الضغط، وكذلك مرض الدوالي في عروق الساقين، بحكم وقفته في صالون الحلاقة من التاسعة صباحا إلى الخامسة مساء، وللأسف فإنه لم يعد إليهم.. لم يمت، لكنه ادخر بقايا صحته، وما تبقى له من عمر للعمل في الصالون، وإقامة ما تيسر من الصلوات في مسجد قريب.

بهذا ارتقى بهلول إلى لاعب أصيل، ومع أنه لاعب في مستوى أقل من المتوسط إلا أن الحظ كان يقف إلى جانبه، وليس الحظ فقط بل إن

أسلوبه في اللعب القائم على الثرثرة وتمايله الدائم في جلسته ذات اليمين والشمال، واستظرافه إطلاق النكات وتوزيع المجاملات المفاجئة بسخاء وبغير مناسبة، أربكت ثلاثتهم، خاصة رسمي، إذ إن أبو أحمد أخرس بدوره، أما أبو سمير فأطرش، وهذا موظف متقاعد شرع ينقطع عنهم. لم يصبه مرض ظاهر رغم إفراطه في التدخين، لكن أم أولاده أخذ الله وديعتها فجأة وقد قاموا ثلاثتهم بتعزيته، بعد أن تحرّى لهم بهلول عن مكان العزاء، ورأوه مستسلمًا وادعًا يحدق في شفاه المعزين دون أن يسمع شيئا، كما رأوا أبا فراس هناك، وقد بدا كمن ازداد عمره عشر سنوات في عشرة أسابيع، وبهذا بقي رسمي يلعب بصحبة أبي أحمد مساعد المقاول، والسيد بهلول الذي كان يزداد ثقة بنفسه كلما نقص لاعب، مستشعرا حاجة الآخرين إليه، وقد حدث أن انضم إليهم غير مرة لاعب رابع طارئ، غير أن رسمي لم يستسغ سلوك ولعب أحد منهم، وهو ما كان يوافقه عليه أبو أحمد بغير مناقشة، فاقتصرت الطاولة على ثلاثتهم بعد أن غاب شريكهم الرابع الأطرش الأرمل دون أن يترك خبراً.

والأغرب مما سبق أن بهلول بعد أن صنع شباك حديد لبيت رسمي وحلف بعِرضه وأرواح أمواته أن لا يتقاضى ثمنه، قد بدأ يسعى لعقد صداقة معه خارج المقهى، وهو ما لم يكن رسمي يرحب به على أي وجه، فلديه أصدقاء كُثر وإن كان قلما يراهم ويرونه كما هي حال علاقات الناس في هذا الزمان، كما أنه يصعب على من هو في سنه أن يتصادق مع أناس جدد، وإذا كان لا بد من ذلك فليس مع بهلول أفندي، الذي لا يدرك

أن اللعب لعب والصداقة صداقة، وعدم الخلط بينهما هو بمثابة قانون معتمد لرفقة اللعب. وقد استشعر بهلول بحاسته التجارية شيئا من ذلك، فزعل وقاطع رفيقيه الباقيين مساعد المقاول أبو أحمد الأخرس، والأستاذ رسمي الذي عقب مع نفسه قائلاً: رضينا بالهَمّ والهَمّ ما رضي فينا.

وقد واصل الاثنان اللعب بصورة شبه يومية كما هي العادة، لكن بقدر ملحوظ من المكابرة والاعتصام بالصمت المطبق، فقد استغل رسمي انقطاع أبو فراس الحلاق الأخرس وأبو سمير المتقاعد الأطرش، كيما يتوقف عن الحديث بلغة الإشارة والهمهمات مع أبو أحمد الاخرس بعد أن كادت هذه اللغة تتلبسه، من فرط استخدامه لها من قبل مع الرفاق الثلاثة.

اللعب بصمت وبتبادل النظرات الزائغة وأحيانا الشزراء مع الرفيق الأخير، بدا لرسمي قريبًا من مسرحيات اللامعقول المملة. ما عاد يستمتع بالفوز، كما لم يعد يتقبل الخسارة ما دام أن اللعب نفسه لا يوفر تلك الإثارة، ولا يستحق تحمل الخسارة وهو ما يعجز عن شرحه للاعب متكلم، فكيف مع هذا المحروم من النطق، بل إن رسمي بدأ يساوره الشعور بجهله التام بهذا الشخص الذي يشاركه اللعب منذ نحو سبع سنوات، وقد عمد إلى التغيب بصورة متكررة رغم حنينه لأجواء المقهى واللعب، وكان يجد أبو أحمد كل مرة في انتظاره بعيون ملؤها الترقب والعتاب، وحين تبلغ رسمي من النادل أنه كان يجلس في غيابه وحيداً ساهمًا إلى ما قبل العاشرة ليلاً بقليل، وعرف أكثر من ذلك أنه فقد عمله

الذي كان يؤمنه له أحد اقاربه المقاولين، وأنه يبحث هذه الايام عن وظيفة. يا للهول.. حدث رسمي نفسه قائلاً: رجل على عتبة السبعين ويفتش عن وظيفة، هذا ما بقي لي أن اشهد عليه بعد أن اختلطت المأساة بالملهاة اختلاط السكر بالملح.

ورغم مشاعر الكره التي بدأت تتسلل إلى نفس رسمي إزاء رفيقه التعس، بعيونه شبه الدامعة لكن الماكرة، والذي يصطحب معه بعض الأدوية فقد قبل التحدي، إذ بدأ يرى الأمر من قبيل التحدي الشرس، بعد أن تغيرت أجواء اللعب، وبات يُطبق عليها الضيق والتوتر، وبعد أن استفرد به اللاعب الأخير، وأخذ يتناحر معه. لم تعد مسألة لعبة ورق من يخسر فيها، ومن يربح. من يُهزم فيها ومن ينتصر، بل كما قالت له نفسه في أحد أحلامه: من يبقى منهما أخيرا على كرسيه في المقهى، ومن يموت أولاً..

عمّان، 2003

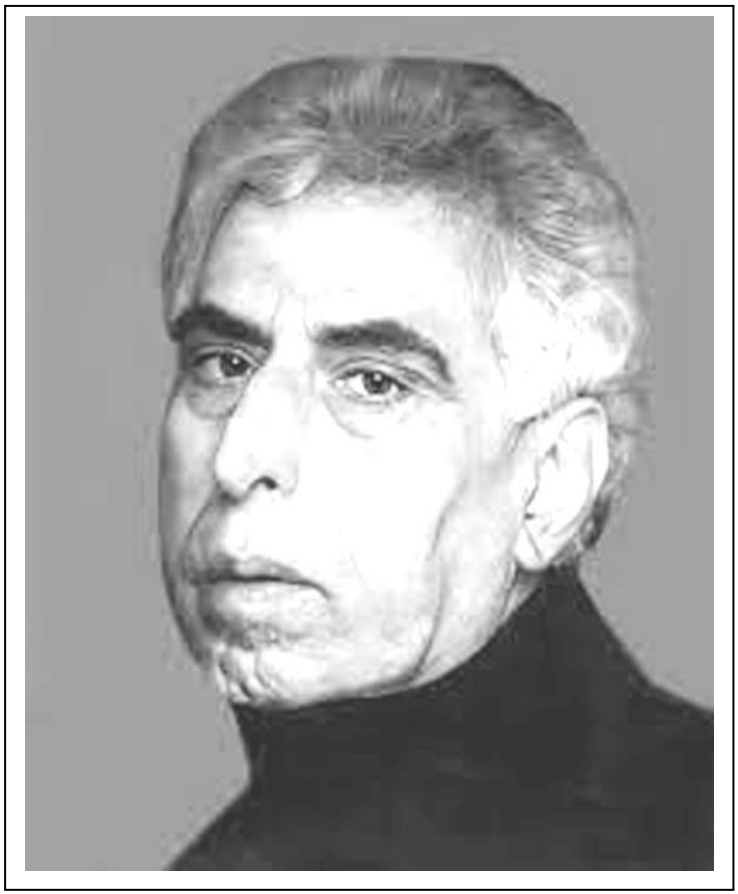

سعدي يوسف..
ابن الحياة وحليف المنافي

للأسف جاءت وفاة سعدي يوسف في لندن متوقعة، بعد ذيوع الأنباء عن استفحال السرطان في رئتيه وربما في مواضع أخرى من جسده الذي نحل في سنواته الأخيرة. فقد عاش متنقلاً بين لندن وتورونتو، إذ تحمل زوجته، الناقدة المسرحية إقبال محمد علي، الجنسية الكندية، بينما يحمل هو الجنسية البريطانية. هذه السطور عنه هي في منزلة شهادة محبة ومحاولة فهم بحق هذا الرجل وليس غير ذلك. وهو بلا مراء شاعر استثنائي يمتلك من الاعتداد الطبيعي بموهبته الشعرية ما يحوزه من لطف شخصي بغير حدود، رغم مقالات غاضبة له وعلى قدر من النزق بحق أشخاص. وإذ لم يعرف سعدي وظيفة ثابتة تمنحه مورد رزق باستثناء سنوات العقد العشريني من حياته، فقد أخلص إخلاصاً منقطع النظير للشعر والثقافة، من غير أن يمنحه هذا الإخلاص المقرون بالإنجاز سوى القليل مما يتدبّر به شؤون حياته.

وقد ظل عفيفاً متعففاً وعلى تخوم الزهد، لدرجة أنه ظل يكتب وينشر في نحو العقدين الأخيرين من حياته في مواقع إلكترونية ثقافية لا تملك ما تدفعه له من مكافآت، وهو مُدرك لذلك وراضٍ به. في آخر لقاء معه عام 2017 جمعنا فندق ريتز في طنجة، ولم أتوانَ عن الاستفسار منه عن مورد رزقه، فقال إنه يتقاضى راتباً من بريطانيا «بحُكم السن» بحسب

تعبيره (راتب الشيخوخة)، وللمرء أن يتخيل نمط حياته بذلك الراتب في بلد ترتفع فيه كلفة المعيشة. لذلك لم يكن غريباً أن يسارع إلى إنفاق قيمة جائزة العويس التي منحت له ثم سُحبت منه، مُعقّباً بأنهم «هم من سعوا ورائي لمنحي الجائزة، أما مبلغ الجائزة فقد أنفقته»!

ومع نشأته ريفياً في قرية حمدان، وهو ينتسب لقرية البقيع المجاورة لقرية بدر السياب جيكور في قضاء البصرة، إلا أنه تمتع منذ البدء بروح المغامرة والنزوع إلى اقتحام المدن والمجهول، وكانت رحلته الأولى والقصيرة إلى الكويت المجاورة عام 1957 حيث عمل معلماً لعام واحد، إذ عاد إلى العراق بعد حركة 14 يوليو 1958. وقد نشأ في بيئة يسارية ومتفتحة بحكم الصداقات، خاصة مع السياب. ومكث في موطنه ستة أعوام ثم غادره في عام 1964 إلى بيروت فالجزائر ثم عواصم أخرى ولم يعد للإقامة في بلاد الرافدين. وكان جريئاً حينما امتدح المنافي قائلا إنها: «قد صنعتني وشهدت عطاءاتي ومنجزاتي» وإنه لم يشعر بلعنة المنافي، بل على العكس استشعر مزاياها. ولم يتوقف عند ذلك فقد أفاد في حوارات إعلامية عدة بأن «الحنين عدوّي»، موضحاً أن الحنين لمدارج الصبا كان سيكبّل انطلاقته الشعرية لو أنه استسلم عاطفيّاً وروحيّاً له. وقلما يصادف المرء مبدعين عرباً يجهرون بمثل ما نطق به سعدي الذي كان يجد في العالم، ابتداءً من العالم العربي، وطناً كبيراً له.

ولقد تنقل بين بيروت ودمشق وعدن والجزائر والمغرب وعمّان، وزار أغلب الدول العربية والأوروبية، وعقد صداقات أدبية واسعة مع الأدباء العرب. ويسترعي الانتباه أن سعدي ظل يصادق أدباء من سائر

الأجيال، من يكبرونه سنًا بعشرين عامًا ومن يصغرونه بأربعين عامًا على السواء، وبالدرجة نفسها من الدفء والاحترام، وكان يكفي أن ينشر أديب شاب بضع قصائد أو قصصًا تروق لسعدي، حتى يحظى بصداقته، هو الذي طبّقت شهرته الآفاق؛ بما يجعله عَلما يتمتع بكرم النفس وسماحتها، مع منزع ديمقراطي، إذ ينفتح على سائر ألوان التعبير من الشعر العمودي إلى قصيدة النثر من غير جمود في الذائقة أو تقوقع في «مذهب» فني.. وفي ظن الكاتب أنه خلا صداقاته الأدبية المتشعبة في سائر بلدان العرب وفي المنافي، فإنه قلّما تمتع بصداقات شخصية وثيقة. مثلاً في اللقاء الأخير معه في طنجة قبل أربعة أعوام، قال لي إنه لا يلتقي إلا بأقل عدد من الأدباء، رغم زياراته المتكررة لهذا البلد الذي يحبه، ونيله منه جائزة الأركانة للشعر، وإنه يرغب في التواصل مع عامة الناس وبسطائهم (هؤلاء يمنحونك ما تلاحظه وتتفاعل معه، وتكتب عنه، خلافًا للعلاقات مع الأدباء) وكان يقصد الأدباء في كل مكان.

وإذ تقوم هذه الشهادة على الاسترسال، تجدر الإشارة إلى ما تحدث به في حوار تلفزيوني بأنه في بداياته قد تأثر تأثراً كبيراً بالسياب وعبد الوهاب البياتي، وبما أن تقليد السياب على درجة من الصعوبة كما قال، فقد تنكب في بدايته طريق البياتي! وبعدئذ وفي وقفة مع الذات وفي محاولة تلمّس طريق خاص به، قال إنه توصل إلى قناعة مبكرة بأنه لا بد أن يلتفت إلى الكائن الفرد، وبذلك يسعه أن يضيف جديداً إلى الشعر العربي. وللمرء أن يستنتج أن هذا المنزع يتعارض مع الطروحات اليسارية وما تحمله من مفاهيم وظيفية للإبداع، وأن أدلجته تقع على الأغلب بعيداً

عن مملكة الشعر التي شيّدها ببراعة ورهافة، وأن انبراءه لمعاينة الفرد والتعبير عنه يتلاقى مع انشغال السرد بالفرد، وهو ما يفسر أنه كتب شعر التفعيلة مشتملاً على قيم قصيدة النثر، فتأثر به شعراء النثر بأكثر مما تأثروا بغيره. ولأن سعدي ليس أحادي البعد فقد جمع بين التجويد ونزوعه المتزايد إلى التقشف والاقتصاد البلاغي والتعبيري، معربـًا عن طموحه في مقابلة معه إلى كتابة قصيدة «أكثر تقشفـًا ونحولاً»، هذا في الوقت الذي يصرّح فيه بأنه يستحضر ما يسميه «القارئ العام» لدى شروعه في الكتابة الشعرية، وأنه لم يتجه يومـًا لقارئ متحذلق.

لم يكن كاتبـًا سياسيّـًا، لكن ربع القرن الأخير من حياته، ومع توافر الشبكة العنكبوتية، شهد اندفاعه لكتابة مقالات سياسية أثار بعض منها جدلاً على نطاق واسع. وفي ذلك كان يكتب مثل من يتحدث شفاهة في السهرات إذ يُشرّق الساهرون ويُغرّبون، وإذ «ليس على الكلام جمرك»، خالطـًا ما هو عام بما هو شخصي. وقد انتقل هذا التسرع إلى بعض قصائده التي حملت رؤى سياسية في ما هو آني ومتحرك، وأثارت بدورها الجدل والانقسامات حوله، غير أن ذلك يظل نزراً يسيراً وعارضـًا في المنجز الهائل لعطائه (44 ديوانـًا)، إذ يعتبر من أغزر الشعراء العرب، ويمثل شعره مرآة للمشهد الشعري العربي في نصف القرن الماضي على الأقل.

ولم يكتفِ بذلك بل ترجم نحو 24 كتابـًا عن الإنكليزية بين شعر وروايات ودراسات، علاوة على إصداره ثمانية كتب نثرية بينها رواية وكتاب قصصي. وهو إنجاز للشاعر الجوال صاحب الأخضر بن يوسف

(سئل: من هذا الجزائري الأخضر بن يوسف؟ فأجاب: أنا..) الذي لم يعرف الاستقرار في بيت أو بلد، وقلما يدانيه في هذا الإنجاز شاعر أو مبدع عربي. ولعل هذا الإنجاز الهائل يجيب بذاته عن التفوهات بمواظبته على معاقرة الشراب، فهل يملك «مُدمن» مزعوم من الوقت، ومن الأعصاب، ومن الذهن الصافي، ومن القدرة الفائقة على التركيز والجلد الجسماني المتين، ما يمكنه من العكوف على كتابة وترجمة نحو 76 كتابا، ناهيك عن القراءة المنهجية المثابرة، وفي ظروف التنقل واللاستقرار الحياتي؟!

بقيت ملاحظة في هذه الشهادة السريعة، وهي أن «الشيوعي الأخير» كما ينعت نفسه، قد قطع مع الحنين إلى الوطن، لكنه لم يقطع مع الحنين إلى الآيديولوجيا التي فارقها واقعيـًا وفعليـًا، فقد اختار الإقامة في البلد الرأسمالي، والاستعماري السابق بريطانيا، مُثمّنـًا الحياة في هذا البلد مع ملاحظات سلبية جانبية عليه، ولم يُقِم في كوبا مثلاً.. جنة الشيوعية، بل إنه إذ اكتسب الجنسية البريطانية انتمى إلى حزب العمال في ذاك البلد وليس إلى الحزب الشيوعي فيه. على أن حياة الشاعر وشخصيته وحتى شعره يتسع لقدر من التعارضات الذاتية مما يصادفه المرء في حياة العديد من الأعلام والشخصيات المؤثرة وفي سيرهم المهنية. علمـًا بأن من لا يقف على الضفاف، ويُكثر الحضور والخوض في سائر القضايا الثقافية والشؤون السياسية على امتداد ستة عقود، فإنه حُكمـًا عُرضة للوقوع في أخطاء، إما نتيجة التسرّع والانفعال، وإما لتقلّب الأحوال والظروف العامة.

16 يونيو 2021

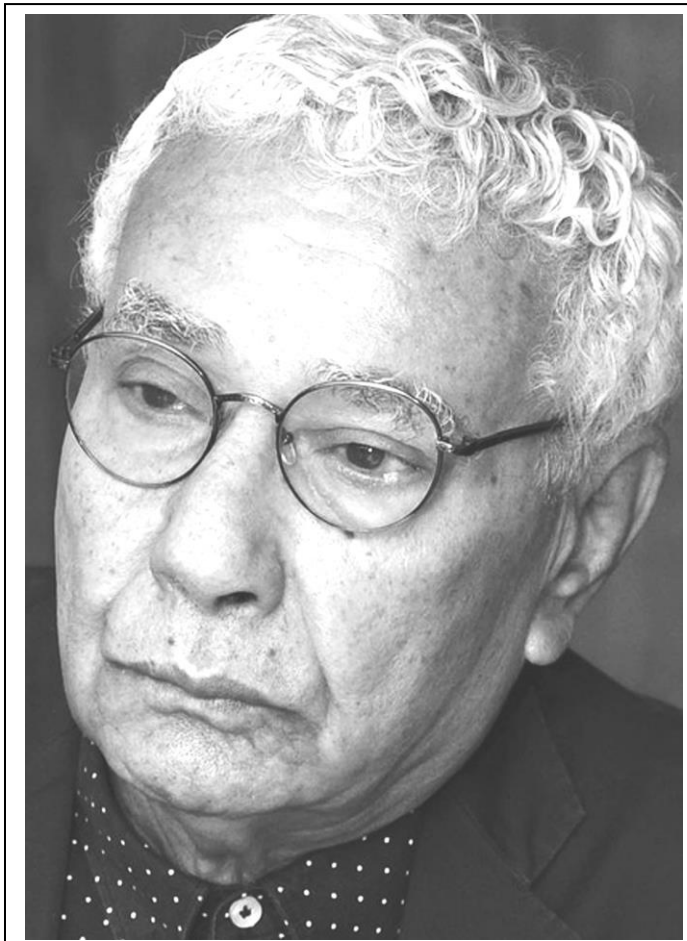

رسالة متأخرة إلى سعيد الكفراوي

مرحبا عم سعيد. اشتقنا لك «موت». لم تعُد تدعوني لزيارة القاهرة، فكيف لي أن أزور المحروسة في غيابك، وهل تبقى كما هي بدونك. سوف أسامحك، وأتعشّم أن تكون قد سامحتني وعذرتني لتأخري عن المشاركة في وداعك، فقد عهدتُ منك السماحة والمحبة وكرم النفس، وهذه الشمائل بعضٌ من ذات نفسك المُشعّة، ولن تفارقها في الحياة والممات.. أما عذري لتقاعسي في وداعك فهو ما سأحول بسطه في هذه الرسالة المفتوحة. لقد فاجأني رحيلك، وكنت أتوقع أن تنزوي وتعكف مع فاكهة العزلة وأن تستمتع بـ«الاختفاء»، وقد فاجأني أكثر أنك كنت بصورة ما تبيّت النية على الرحيل بل تندفع إليه، وأجدني أصدّق إبراهيم عبد المجيد الذي نسب إليك قولك قبل أيام من رحيلك إنك «عاوز تمشي». وعلى قسوة عبارتك فإنها شديدة البلاغة، فأنت تغادر ملكوتًا لتمشي إلى ملكوت آخر، وأنت ضجرت من العيش الذي تحول إلى عادة معتادة، وسئمت حال السكون وتنشد الحركة، ويبدو أن الضجر بلغ عندك أشدّه. وقد بِتّ أعتقد أن الضجر حين يجثم على صدر صاحبه وعلى روحه فإنه يصل به إلى درجة الإيلام، مثلما هو العارض الصحي الصعب، وأعني به ضجر العمر وضجر الحياة اليومية حين تستنسخ نفسها في روتين لا ينقطع. روتين ثقيل يصبح معه أداء اليوميات من اغتسال وتبديل ملابس وشحن الموبايل وتسريح الشعر وتنظيف الأسنان

وتناول الطعام ووضع المفتاح في القفل وقيادة السيارة ومحاولة النوم ومحاولة الاستيقاظ، أمورا يستثقل المرء أداءها على بساطتها. وأستشعر أنك بلغت هذه الدرجة من الضجر أنت الذي لطالما نظرت إلى مباهج الدنيا بما فيها الأمجاد المعنوية بما تستحق من استخفاف. أقصد بترفّع شديد لكنه طبيعي، فلا تحمل لك هذه أي عزاء أو سلوى، لذلك عزمتَ على «المشي» (المغادرة). ولقد عرفتُ كذلك أنك أصبت بعارض صحي لئيم وجسيم أبى إلا أن يحلّ في بدنك، بينما أنت تدير الظهر للحياة الدنيا في مساء العمر. يا لقلّة الذوق! يا للؤم ويا للعدوانية المقيتة! وحين يشتدّ ألم العارض الصحي فهو قد يُعرّض صاحبه للإهانة على ما قال مرة الشاعر اللبناني يوسف الخال، أنت الذي لا تقبل الإهانة ولا توجهها لأحد. هكذا تكوكبت عليك الأرزاء (أنت تضحك وتقول: الدنيا أرزاء «أرزاق») والمقصود كما تعرف «البلاوي الزُرق»، هذا بينما أنت تستشعر بدون توقف الغياب المُمض لرفيقة عمرك أحلام، وتستهول وحشة بيت المقطم على جمال البيت وأناقته، بما يجعل من الحياة عبئا خالصاً تتحالف فيه الرتابة مع انطفاء جذوة النفس مع الخسران.

أستذكر هنا أنك أخبرتني ذات يوم في القاهرة أن مخايل الرحيل تظهر على سيماء الأحياء قبل أيام من رحيلهم، وذلك على هيئة شحوب خاص في الوجه يجمع بين اللونين الرمادي والأصفر، مع غمامة على العينين تجعل النظرات زائغة مرتدة إلى الداخل وراء غيمة صغيرة لامعة. وكنت تقصد أعز أصدقائك وأقربهم إليك، محمد عفيفي مطر، الرمح المنتصب

الذي احتفظ بشبابه وأنفته حتى الرمق الأخير، لكنك لاحظت عليه ما لاحظت. وأتساءل الآن إن كانت لديك الفراسة لتستقرئ وتلتقط تلك المظاهر في نفسك كما لدى الآخرين، وأكاد أجيب بالإيجاب، ولعلها تمظهرت لديك في عوارض نفسية جعلتك تفقد الرغبة في كل شيء. وإلا لماذا تعجلت الرحيل؟ فأنت في الأصل زاهد كبير، تمُرّ على الحياة مروراً متفحصاً وعلى تباعد، ومن دون كبير انغماس فيها. وأستحضرُ هنا عبارة لإميل حبيبي يذكر فيها أن الزهد المطّرد الذي يصادفه البعض في نفوسهم تجاه الحياة، إنما يعني في ما يعنيه التقبّل التدريجي للمغادرة. وإني واثق أنك لطالما حاورتَ الموت وجاورته، وأنك لطالما رأيت والدك الراحل وأنت تنظر في المرآة، وأدركت أنك آيل إلى مصيره، وبهذا يتضافر الموت مع الحياة، فكما أنك امتداد للأب كذلك الموت امتداد للحياة. بالنسبة لي فقد بتّ أرى الوجود بيتاً من غرفتين متقابلتين: غرفة للحياة وغرفة ثانية للموت. ويروق لي دائما تشبيه الوجود بقاعتي المغادرين والقادمين في المطارات. المغادرون هم الراحلون والقادمون هم المواليد.. وكل مطار يعمل برحلات الذهاب والإياب. وأخالك الآن قد يمّمت وجهك صبيحة يوم السبت 14 نوفمبر 2020 نحو قاعة المغادرين، في رحلة باتجاهٍ واحد متخفّفاً من كل الأحمال، إذ يكفيك ما تحمله في نفسك من نجوى ومن صبوات، صاعداً نحو الملكوت للقاء أبيك وأحلام، وللعودة إلى الترعة والحقول ومملكة الطفولة والفتوة. وتعرف أني أنهمك في التأمل مثلك، فالحياة برمّتها يمكن اختزالها وتشخيصها بيوم واحد:

الصباح هو الطفولة، ساعات الضحى والظهيرة لعنفوان الشباب، في المساء تحِلّ الكهولة، ثم يرخي الليل سدوله على الشيخوخة.

وإذ تألمتُ لغيابك واعتراني قبضٌ نفسي شديد، فقد انتابتني في الوقت ذاته مشاعر غريبة راسخة وغائرة في النفس إزاء الخبر. لقد شعرتُ أنك تنفصل عن مُحبيك الكُثُر ومن بينهم صديقك كاتب هذه الرسالة، وأنك بموازاة ذلك تنضم إليه. كيف؟ سأخبرك: إنني أتقبل الموت مثلك لدرجة أن بعضاً مني، من روحي، قد ذهب منذ ردح من الزمن إلى تلك المنطقة، مكث بها والتحق بل اتّحَدَ بها، بينما بقي البعض أو الجزء الآخر مني رهين الحياة. وإذ استشعرَ الجزءُ الحي مني صدمة غيابك ومرارته فإن الشطر الآخر مني المتصالح مع الموت قد استقبلك بترحاب. بهذا فقد خسرتك بمقدار ما كسبتك. ولهذا أخفقت بالمشاركة حينها في وداعك، إذ كان بعض مني يستقبلك.

إني لمتيقن من أنك اطلعت على هذه الرسالة قبل نشرها، فقد ناجيتك طويلاً بمحتواها. لدرجة أشعر معها أني أكرر نفسي إذ أدوّن مشتملاتها. والكتابة عموماً باتت مهمة ثقيلة أكثر من المعتاد وسط الضجيج الهائل وطوفان الكلمات الذي تفيض به وسائط الاتصال الحديثة. لقد نُهبت اللغة وتمزقت شلواً شلواً على أيدي هواة وثرثارين وجشعين واستعراضيين وطارئين على الكتابة. ومعه حق صموئيل بيكيت الذي قال إنه يشعر بجُرح الكتابة شعوراً حسّياً. أجل.. الكتابة تجرح صاحبها، إذ تخرجه عُنوة من مسار وتضعه في مسار آخر، تخرجه من مملكة الصمت،

فالأصل أن الكائن صامت. في البدء كانت الكلمة. بيد أن الصمت يسبقها ويمهد لها دائما. ولهذا اقترنت حياة الأنبياء والصالحين وأصحاب الرؤى في جانب كبير منها بصمتٍ مديد. الجبال والأشجار صامتة، وأمنا الأرض صامتة، فإذا نطقت تصدعت أو انبعثت منها حمم بركان. الجنين صامت فإذا خرج إلى الهواء أطلق صرخة. وأنت الآن في رحاب الصمت، وقد قفلتَ عائدا إلى كينونتك الأولى قبل الولادة، وقبل أن تحمل بك الوالدة، وهناك تجد نفسك الضائعة. أرجو أن تنعم بالسلام الذي تستحقه.

وقبل أن أختم ثمة ذكرى تلوح. يا لانثيال الذكريات! ها إني هذه اللحظة استحضر صوتك وأنت تخاطبني في أحد شوارع وسط البلد بالقاهرة قائلاً إنك لا تحب عالم الموت، لماذا؟ لأنه عالم أصم أبكم، أجبتني. هكذا نفكر نحن الأحياء، غير أني واثق أن للراحلين رأياً آخر. الموت نهاية الحياة التي نعيشها ونعرفها، لكنه ليس نهاية كل شيء مما لا نعرفه، لهذا أراك مجرد غائب عن النظر «واخد إجازة مفتوحة»، مسافر، مرتحل، مختفٍ، أو سادر في نوم طويل (النوم موتٌ قصير، أما الموت فنومٌ طويل)، على أن روحك يقظى، وأكاد أسمع خفقها ودبيبها. وصوتك المفعم بالعاطفة يصدح بالتساؤل والاستغراب، وضحكتك الأنيسة تؤثث هذا الفراغ الفسيح وتُحلّي مرارة غيابك.

على العهد يا صديقي إلى الأبد، إلى الأبد على الأقل.

12 أغسطس 2021

صلاح حزيّن[1]..
شمس الابتسامة

ما إن شرع صلاح ظهيرة الأحد الثاني من أغسطس الماضي، في أخذ أول قسط له من راحته الأبدية في أم الحيران، حتى خرج واعظ شاب على جمهور المشيعين قائلاً بين ما قاله: إن الفقيد ودع دنيانا بابتسامة. ولأني أعرف صلاح حزين من قرب معرفة وثيقة وحميمة، فقد صدقت الواعظ الشاب، ووجدتني أرسم ابتسامة وداع رداً على ابتسامته الأخيرة. فلطالما تبادلنا الانتباهات على ما حولنا وعلى ما هو بعيد عنا، بتقليب الأمور على

(1) صلاح حزيّن (1946-2009)، كاتب ومترجم أردني / فلسطيني. ترجم «إنهم يقتلون الجياد أليس كذلك» ونشرت في بيروت 1983، وفي العام التالي ترجم رواية قلب الظلام لجوزف كونراد، وقد أعادت دار أزمنة في عمان اصدار الروايتين المترجمتين عام 2004.
عمل كاتبا للاستطلاعات المصورة في مجلة العربي في ثمانينيات القرن الماضي .
صدر له في العام 2009. بعد وفاته كتاب «غسان قلبي» عن مركز أوغاريت الثقافي في رام الله، يسرد فيه تجربته الأليمة مع إصابة ابنه غسان في حادث سيارة كان يقودها مصطحبا المخرج ميشيل خليفي في 13 يوليو 2006 إلى نقطة الحدود الأردنية مع فلسطين المحتلة، ما أصاب الابن وهو صحفي وكاتب بدوره بغيبوبة لم يخرج منها حتى إعداد هذا الكتاب أواخر العام 2021.
في العام 2012 بعد ثلاث سنوات على رحيله، صدر كتابه «إضاءات على الأدب الإسرائيلي» عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر. هيأ الكتاب للنشر الكاتب والناشر وليد أبو بكر والكاتبة حزامة حبايب..

وجوهها كافة والتقاط المُفارق فيها والباعث على التندر. كانت هذه هي اللغة الغالبة على تفاهمنا المكين، على مدار أربعة وثلاثين عاماً من جملة خمسة وثلاثين عاماً هي عمر علاقتنا. حتى الموت كنا نلاقيه ببعض ابتسام. وأخاله يقلب معاني أم الحيران التي رقد فيها متبسماً، وأفعل ذلك معه، فلئن كان الحيران لا يجد جواباً على حيرته، فإن له على الأقل أماً ثانية كريمة، تستقبل على أرضها المزدانة بأشجار وارفة العائدين إلى الأبدية.

اكتشف صلاح مرضه للمرة الأولى في مايو عام 2007 بينما كان يجري فحصاً طبياً شبه روتيني. ثم خضع لعمليتين جراحيتين، استغرقت الثانية عشر ساعات وأجراها الجراح محمد المصري في مركز الحسين للسرطان إن لم تخنّي الذاكرة. كنت مع أصدقاء آخرين بينهم إبراهيم زعرور، قد أخفينا عنه انتشار المرض في الأمعاء وما حولها، مما تطلّب إجراء العملية الكبيرة الناجحة. بعدها صارحني بأنه بدأ يفكر في الموت للمرة الأولى. وما إن قال إن الحياة هي وقت يطول أو يقصر على المرء لكن النتيجة واحدة، حتى قلت له إنها أشبه بسهرة أصدقاء ممتدة.. أحدهم يغادر في الثانية عشرة ليلاً، والثاني في الواحدة، والثالث في الثانية، والرابع في الرابعة فجراً، وفي المحصلة فهم يُمضون جميعهم سهرتهم. وقد أجاب إن إقامة المرء في الحياة هي كذلك بالضبط. في تلك السهرة أيضاً أبدى ثقته بالعلم والطب، وقال إنه يسلم نفسه للأطباء من دون أدنى تردد ولا يناقشهم في ما يفعلون.

لـم يكـن صـلاح يفكـر في المـوت، ولـم تشـغله كثيـراً الهـواجس الميتافيزيقية، فقد ظل عقلانيـاً إلى أبعد الحدود. كـان عقـلاً، ويـدرك مـن دون أن يصرح، ما أدركه فيلسوف قال إن شيئين لا يملك المـرء التحديق بهما: الشمس والموت. وقد ساعده ذلك إلى جانب شجاعته، في التعامل الهادئ مع المرض كواقع، من دون الكف عن السخرية، وكـان يطيـب لـه أن يخاطب صديقـاً سبق أن أصابه السرطان بـ«يا زميل».. يا نِعم الزميل.

في نوبة سخرية مرة ومـا أكثـر هـذه النوبـات! أبـدى إعجابـه بـالعزاءات أكثـر مـن الأفـراح. فقـد لاحـظ أن النـاس في بلادنـا وخاصـة في العقـدين الأخيرين، يبدون منشرحين في العـزاءات، بينمـا يصـعب عليهم التخلص من تجهمهـم في أعـراس الصـخب التي تميـز زماننـا. كمـا أن العـزاء يتيح للمعزي القدوم والمغادرة ساعة يشاء، خلافـاً للأعراس إذ يتقيد المهنئون بموعد محدد للقدوم والمغادرة.

لسنا في هذه الساعات في دار عزاء لنتجهم أو نتبسم. بل لنستذكر بعضـاً مـن صـلاح الحاضـر فينـا. فقـد ظـل علـى الـدوام منفتحـاً علـى المعرفـة والمتابعة في شتى شؤون الفكر والثقافة، ومع تمسكه بيسارية عصرية، ظل يحترم الآراء المخالفة بل ينفتح عليهـا، متجنبـاً -وهـذا مـا تلاقينـا عليـه- النزعـة اليقينيـة واحتكـار الصـواب، وذلـك لمصـلحة نسـبية الأشـياء والمفاهيم، والقناعة بأن فكرة التقدم أوسع وأشـد تعقيـداً مـن أن يختزلهـا اجتهـاد نظـري واحـد. ولطالمـا أعجبتـه الأفكـار الذكيـة أيـاً كانـت عقيـدة صاحبها. وممن استثاروا إعجابه على سبيل المثال وعلى الدوام: محمود

درويش وصنع الله إبراهيم، ووليد جنبلاط، وياسر عرفات، وفهد الفانك، ومحمد حسنين هيكل، وحازم صاغية، على ما بين هؤلاء من اختلافات واسعة.

في مقتبل حياته في مطلع عشرينياته، كتب عدداً من القصص القصيرة، لم يقرأها سوى قارئ واحد هو الكاتب نفسه، الذي سارع إلى مقارنتها بقصص لتشيكوف وهمنغواي، وليس بقصص زكريا تامر ويوسف إدريس مثلاً، فلما تبين له أن النتيجة لغير مصلحته، سارع إلى تمزيق ما كتب غير هياب، ولم يعد للكتابة الإبداعية إلا مرة واحدة في وقت متأخر. حتى إنه لم يفكر في خوض معترك الكتابة، وبدا حينذاك في بداية علاقتنا منتصف سبعينيات القرن الماضي، وقد وهب نفسه لخيار المثقف النشط الشفوي، الشارح المستفيض في الكلام الموثق بالمراجع والقراءات، حتى اقترحت عليه في العام 1978 أن يكتب في الوطن الكويتية حيث كنت أعمل وقد لبى طلبي، بينما كان يعمل في سلك التعليم آنذاك. ولم ينقطع عن الكتابة بعدئذ لكن من دون إكثار.

قبل عامين ونيف كتب صلاح «غسان قلبي» ونشر بعض مقاطعه في أخبار الأدب المصرية، وقد بَرَت المحنة المزدوجة روحه الصلبة، فكتب نصاً شفافاً زاخراً بالعاطفة والتأمل، ويجدر نشره في كتاب مع أعمال أخرى، ولعل الأصدقاء يتجندون معاً للقيام بهذا الواجب، ليس وفاء لعاطفة شخصية فحسب، بل لإثراء المكتبة العربية بهذا النتاج المميز، الذي لم يُبدِ صلاح من جهته كبير اهتمام بنشره في كتاب، إذ لم يرغب

-بداعي التواضع- في مزاحمة كتاب مميزين. مع استذكار أنه في الفترة الأخيرة.. الأيام الأخيرة من يوليو 2009 التي أمضاها في الغرفة 403 في مستشفى الحسين أبدى عزمه على استئناف عمله في الترجمة. من أقل الواجب معاونته في ما انتواه، بتنظيم ما أنجزه والعمل على نشره.

أما ضحكاته وقفشاته وسخريته من كل شيء يستحق السخرية منه، فتظل تسري في نفوس محبيه أمام الموت أكبر الساخرين وأمكرهم، والأكثر استحقاقاً للسخرية منه.

25 سبتمبر 2009

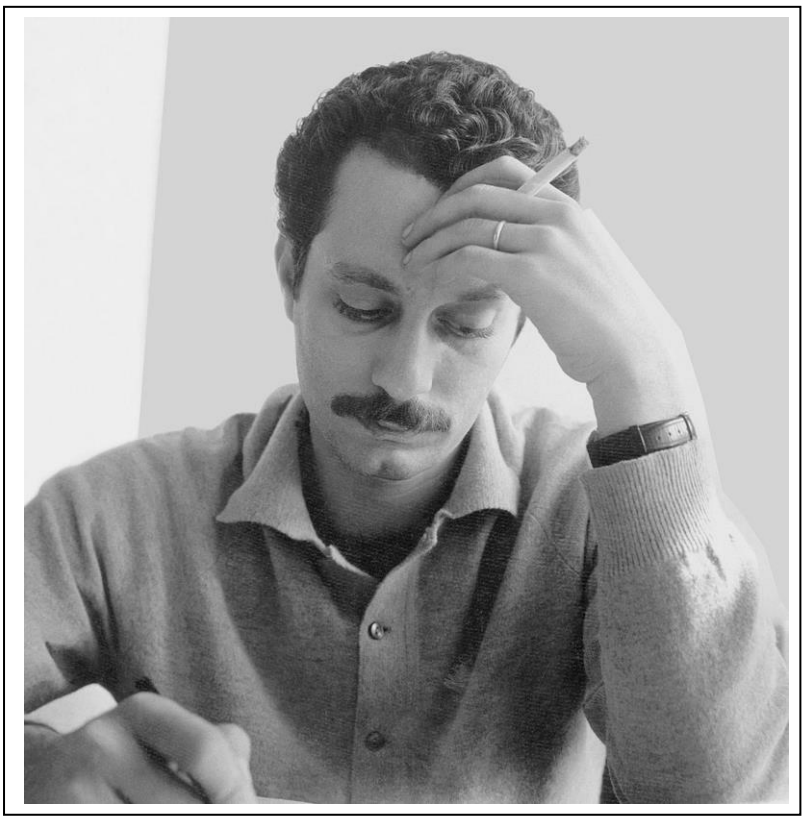

غسان كنفاني..
حياة ممتلئة وسحر شخصي[1]

مع الذكري الخامسة والثلاثين لغيابه، التي حلت قبل أيام، بلغ غسان كنفاني الحادية والسبعين.. وها هو يتوفر على نضارة باقية وألق باهر، بأكثر مما يتمتع بهما شبان ومكتهلون.

عرفت غسان في بيروت وكنت في العشرين من عمري. وكان هو في ربيعه الثاني والثلاثين، وبيننا جبل من الفوارق في التجربة. ولم يمنعه ذلك من المبادرة بمد خيط إخاء ومودة نحوي ودون سابق معرفة شخصية. فاجأني ذلك ومنحني ما يحتاجه الشاب اليافع من ثقة بالنفس ومن اعتراف به. فتح لي صفحات ملحق -الأنوار- الثقافي، الذي كان يرأس تحريره، وبتسهيل من مدير تحرير ذلك الملحق الشاعر روبير غانم، ثم اصطحبني معه إلى -الهدف- محررا ثقافيا للمجلة الأسبوعية التي أدارها، وبقيت فيها لنحو سنتين.

لا أنتوي التحدث عن شخصي الضعيف. غير أني أجد صعوبة في الحديث بموضوعية فحسب.. تائقا في ذلك لمخاطبة غسان والسلام عليه، لا مخاطبة القارئ فقط.

(1) «أخبار الأدب»، العدد رقم 732، الأحد 22 يوليو 2007.

في الوقت الذي بدأت فيه تشيع آنذاك، بعد عام على هزيمة حزيران ومع صعود العمل الفدائي، صورة نمطية للفلسطيني: المقاتل الجهم، القروي، ابن المخيم، والفقير، فقد فوجئت بغسان كنفاني ابنا لمدينة. على درجة ملحوظة من الدفء الشخصي ومن الأناقة الطبيعية والذوق الرفيع. ليست له تلك اللهجة الريفية (غير المعيبة بالطبع!). حتى إن هناك بعداً لبنانيا جليا في شخصيته وقيافته ونبرته! وهو ما أورثني دهشة ظلت مكتومة. كنت أعرف أن الفلسطينيين وأنا في الأصل منهم وأحدهم، ينتمون لمدن وبلدات وقرى، وكثير منهم يقبعون في مخيمات وبعضهم بدو. غير أن التنميط النضالي رفع من نموذج واحد لسيماء الفلسطيني المناضل، كما تمت الإشارة إليه قبل أسطر. ولأن غسان مناضل ينشط في صفوف -يسار جذري-، فقد أدهشني الأمر، ومع دهشة الشاب اليافع فقد سرني هذا التركيب أو ما يبدو غامضا محيرا في شخصيته. وأذكر أني تداولت فيه في حينه مع صديقي الشاعر الراحل محمد القيسي. أما غسان نفسه فلم أفاتحه بملاحظتي وانطباعي، فقد خجلت من ذلك. وهو ما يستحق الخجل بالفعل: فغسان مديني ابن عكا، سليل أسرة متوسطة الحال إن لم تكن ميسورة، ووالده كان محاميا ناجحا، وقد انتقل من عكا إلى دمشق فالكويت فبيروت. أي أنه عاش سحابة عمره في حواضر. فلم يكن غريبا أن لا يحمل شيئا من سيماء الريفيين ولهجتهم وإيقاعهم. ولعل عامين أو ثلاثة أعوام فقط من الضنك عاشهما مع الأسرة في دمشق،

هي ما أمدته بفرصة الاقتراب والتفاعل النفسي والذهني، مع عالم البؤس الاجتماعي ومع خصوصية التشرد واللجوء، إضافة إلى تجرعه التجربة بنفسه، فقد غادر مدينته عكا، فتي في الثانية عشرة من عمره.

كان عروبيا شديد القرب والثقة بالزعيم الراحل جمال عبد الناصر، كما هي حال حركة القوميين العرب آنذاك وكان نجما صاعدا فيها، قبل التحول إلى اليسار والخصومة الأيديولوجية مع -البورجوازية الصغيرة - المنسوب عبدالناصر إليها وفقا لأدبيات ماركسية، وكان إلى ذلك يبدو كواحد من اللبنانيين بانشغاله في السياسة الداخلية لذلك البلد، وبحكم كتابته للعمود الرئيس في الصفحة الأولي من -الأنوار-، وكانت تُحتَسب الجريدة الثانية في لبنان. ولم يكن بعيدا عن نمط الحياة البيروتية إنما بغير إسراف أو مبالغة. وهو ما أورث الشاب الذي كنته الدهشة، وذلك قياسا إلى محورية القضية الفلسطينية في إبداعه القصصي والروائي.

في واقع الأمر أن انتقال غسان من الصحيفة اللبنانية الثانية، إلى مجلة أسبوعية مستحدثة شكَّل تضحية مهنية كبيرة منه. خاصة أن المجلة (الهدف) كانت لسان حال تنظيم هو الجبهة الشعبية، مما يرتب على هذه المطبوعة قدرا غير يسير من التقيد بالاعتبارات السياسية والتنظيمية، والتضحية بالكثير من اعتبارات المهنة، كالتركيز على المقالات والدراسات بدلا من الأخبار والتحقيقات. وكالاضطرار إلى نشر مواد مطولة: تقارير وبيانات، أو حتى القبول بقرارات التنظيم في فرز هذا

الكادر أو ذاك للعمل في المجلة، دون كفاءة مهنية بالضرورة. وكان ينشط في التعويض عن ذلك بكتابة بعض الأخبار المثيرة وتحويل بعض المواد إلى تحقيقات، وحتى تصميم الغلاف بنفسه، والإشراف على عملية الإخراج الفني التي كانت تتم آنذاك بصورة يدوية: القص واللصق، وإعادة طباعة مادة أو أكثر أحيانا لغايات تغيير حجم ولون البنط، أو تعديل عرض السطر المطبوع. وقد اصطحبني ذات مرة بسيارته لإيصال عدد صدر توا من المجلة ولم يوزع بعد، لزملاء له في وكالة رويتر في بيروت. ولما سألته لماذا يفعل ذلك؟ لماذا لا ينتظر كي يحصلوا هم علي العدد في الغد من المكتبات؟ أجابني بأنه بهذه الطريقة يفسح لهم المجال، لأن يبثوا إذا شاؤوا خبرا في وقت مبكر، منقولاً عن المجلة ومنسوبًا لها قبل صدورها. وهكذا عرفت لأول مرة السر الكامن وراء تلك الأخبار غريبة المصدر التي تبثها وكالات أنباء وتقول فيها: إن مجلة كذا ذكرت في عددها الذي يصدر يوم غد أن..! وكان ذلك اللغز المهني عن كيف يعرفون يؤرقني من قبل!

لم أتابع في اليوم التالي إن كانت الوكالة نقلت خبرا عن المجلة أو لا. لعلي نسيت! وفي الأصل لم يكن هناك جهاز للوكالة في المجلة، فلكونها أسبوعية فلا حاجة بها لالتقاط البث اليومي لوكالات الأنباء. كانت اهتمامي بالأدب أكثر. وأكثر منه التسكع في بيروت مع أصدقاء عراقيين من الموجة الأولى التي وصلت إلى بيروت مطلع السبعينيات ومنهم

فوزي كريم، قاسم حول، جمعة اللامي، المرحوم شريف الربيعي، مؤيد الراوي وسواهم، وأدباء وصحفيين لبنانيين وعرب أمثال عصام محفوظ، وسمير الصايغ، وفاروق البقيلي، ومنى السعودي، ونبيل أبو حمد، وياسين رفاعية. وكذلك الشاعر أدونيس الذي خص الصفحات الأدبية التي أشرف عليها في (الهدف) بمقال له، وجعلني عضوا في هيئة تحرير «مواقف» الصادرة حديثا آنذاك.. وسواهم. لم يكن غسان رئيس التحرير يتدخل في مسار عملي، رغم حداثة سني وخبرتي. وهو أمر استحق الإكبار في حينه. كان هناك جو شائع أشاعه هو من المثاليات، من الرومانسية الثورية، من الروح الجماعي الرفاقي، من ترقب انبثاق فجر جديد يتطلب الاستعداد للبذل الذي لا يساوي شيئا مهما عظم مقارنة بتضحيات الفدائيين، وكذلك التواطؤ المشترك بأننا جئنا إلى السياسة من باب الأدب. وكان غسان يصنفني من طرف خفي بأني حداثي. وأعترف أني كنت كذلك، وليس بالمعنى الإيجابي بالضرورة للحداثة. فللإبداع وتنظيراته، شعاراته وادعاءاته كما في السياسة. لقد أدركت من بعد أن القولبة والشكلانية المتعمدة، ليست دائما من الحداثة في شيء، بل قد تكون سلفية مقلوبة. وكان يحترم هذا -الاختلاف- بصورة كلية لا لبس فيها. وللمفارقة فذلك كان يحدث داخل أروقة مجلة ملتزمة التزاما شبه حديدي.

من عرفوه يدركون مدي حيويته ونضارته وذكائه وحضور بديهته، وتفانيه الطوعي في العمل الذي يجد فيه نفسه كما لو أنه في بيته وأكثر. فما أن يحل في مكتبه حتى يبدو أنه لن يفارقه. ويسارع إلى تشغيل ورشته مع أول فنجان قهوة. في المجلة يكتب ما لا يقل عن عشر صفحات، نصفها أو أكثر بغير توقيع. ويقابل أعدادا هائلة من الناس بمن فيهم أجانب. من صحفيين ومن أنصار اليسار الجديد في أرجاء المعمورة، وربما بعض الجواسيس المتخفين، من يدري! لم تكن هناك من سكرتيرة قط. ولا مقسم يستقبل ويوزع الاتصالات الهاتفية، وإن كانت هناك بالطبع أجهزة هاتف. الأوقات القليلة التي كان يتمتع فيها بالوحدة ينكب فيها على الكتابة الأدبية أو الصحفية. لا يعيد كتابة ما يكتبه بقلم سائل ملون لعله أحمر، وبخط منمنم رشيق وصغير الحجم. وكان يُقرئني بعض ما يكتب ومنها فصول من أحد أعماله الأخيرة (الأعمى والأطرش).. وكان يستغل فترة هدوء ما بعد الظهر ليقصد مجلة «الحوادث» التي لم يكن مقرها على مبعدة من مكاتب «الهدف». كان يمدح ويشتم عن محبة سليم اللوزي صاحب الحوادث، ومن الواضح أنه كان معجبا به كطاقة صحفية جبارة وصاحب قلم سيال. كل ذلك في عام السبعين وليس بعد. وقد عرفت أنه يكتب في «الحوادث» آنذاك بغير توقيع. والأرجح أنه كان يفعل ذلك من أجل التواصل مع مطبوعة مميزة غير حزبية، وربما في سبيل الحصول على مكافأة مالية، تعوض بعض ما فقده حين غادر دار الصياد التي تصدر

عنها «الأنوار» وكان الكاتب الأبرز فيها، إلى مجلة ملتزمة يتقاضى العاملون فيها بمن فيهم رئيس التحرير كفاف يومهم.

لم يكن ثريا. لم تكن هناك مصادر مالية مساعدة للكتاب والأدباء، كما حدث بعد فورة النفط. لا أحد يدفع مكافآت، لا المجلات ولا الإذاعات ولا التلفزيونات محدودة الانتشار آنذاك، ولم تكن هناك من جوائز، وترجمة أعماله نشطت بعد غيابه، لا في حياته القصيرة العريضة. وسيارته دائما صغيرة متوسطة العمر، ولم أكن آنذاك أميز بين موديلاتها. غير أنه غني النفس، وقيافته بسيطة لائقة وجذابة. يرتدي الكرافتة (رباط العنق) في المناسبات فقط، ولا يتحدث عن المال أبدا. لا يشكو ولا يشكر. بل هو مولع بالسخرية، لتنشيط طاقته على العمل وتعبيرا عن نزوع شخصي، مع قدرة لافتة على التدفق في الحديث واللعب بالألفاظ وتداعياتها، وتوليد تعبيرات جديدة. وبالطبع فالعلاقات النسائية هي من أفضل مجالات السخرية. لاحظ مرة أن أحد العاملين يسعى وراء صحفية أجنبية كانت تتردد على مكتبه (مكتب غسان). أما الدون جوان الذي يسعي في مطاردتها، فكان أصلع مقدمة الرأس وأعلى الجمجمة معا، رغم أنه كان شابا في أوائل الثلاثينيات. فقال له ضاحكا: من له صلعة في مقدمة رأسه يكون «سكسي». ومن له صلعة في وسط الرأس فهو مفكر. أما من يكون على صلع هنا وهناك مثلك، فهو يفكر أنه سكسي!

لأن هذا النوع من النكات الذكية اللاذعة يستهويني، فقد اختزنتها في ذاكرتي وليس لأي سبب آخر. فيكاد الرجل أن يكون نبيلا مثاليا يُقبل على مهمته باستغراق صوفي ولكن بحرفية عالية، وتنتظم حياته بصورة توحي أنه يتحمل طواعية ووحيدا تقريبا عبء القضية الفلسطينية. وهو ما حمله على إصدار أول كتاب عن الأدب الصهيوني وأول كتاب عن أدب المقاومة في الداخل: فلسطين 1948. وقد أسهم في أواسط الستينيات بإيصال القصائد الأولى لمحمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد، لسهيل إدريس الذي نشرها في مجلته «الآداب». وأحدثت حينها ضجة كبرى.

ورغم الإرهاق الذي كان يشعر به فلم يكن يتأفف. وقد تمكن من التخلص من التدخين.. من تلك «المجرمة» كما كان يسمي السيجارة، وإن ظل يحتفظ بين آن وآخر بسيجارة غير مشتعلة بين أصابعه. وكان يحقن نفسه بنفسه كما بدا في الفيلم الذي أنجزه ماجد عبدالهادي لـ«الجزيرة»، لمقاومة السكري والنقرس. وإذ يشيع أجواء من الود الطبيعي والكامل والاحترام المتبادل مع العاملين، فقد كان يتوتر إذا ما شهد مشادة بين اثنين فيوبخهما بالقول: ألا تعرفان أن صاروخا إسرائيليا قد يخترق المكاتب، ويضع حدا لحياتكما وحياتنا جميعا؟ وهو ما كان يثير خجلهما فيلوذان بالصمت ويتصالحان.

أجل كان يهجس بالموت اغتيالا. رغم أن الإسرائيليين كانوا آنذاك بالكاد بدؤوا مسلسل اغتيالات الناشطين والرموز. ومع ذلك كان يسير في حياته برضا مفعم بالثقة بالنفس ومع قدر ملحوظ من الزهو أيضا. ولم يكن يعرف التزود بمرافق حارس. لم تكن تلك المظاهر موجودة آنذاك، فالمهم أن الفلسطينيين قرعوا الجدار أخيرا. وكان منهمكا في محاولة الإجابة لماذا ابتدأت حركة فتح الكفاح المسلح قبل حركة القوميين العرب، مع التنويه أنه كان للقوميين مبادراتهم آنذاك التي واكبت انطلاقة فتح إن لم تسبقها؟ كما كان منشغلا بالرد علي حملات الفريق المنشق حديثا (الجبهة الديمقراطية) وعلى مجلتهم «الحرية» وكان هو من قبل أحد أركانها البارزين. لا أعرف لماذا أتذكر الأمور الصغيرة الدقيقة أكثر من سواها: حين كان في «الحرية» وعلي ما رُوي، طلب منه محسن إبراهيم رئيس التحرير ذات مرة، كتابة خبر نعي لأحد الأشخاص قائلا: أكتب الخبر يا غسان فأنا لا أعرف كيف أكتبه. فأجابه: من قال لك إني أعرف كتابة خبر نعي؟ كان يروي ذلك ضاحكا وهو الذي بوسعه تسويد صفحة كاملة في جريدة، وكان يفعل ذلك حقا في «الأنوار» أسبوعيا، وسبق له أن ترأس تحرير جريدة «المحرر» وهو في الثامنة والعشرين من عمره، ساخرا من نفسه أمامنا لعجزه عن كتابة خبر تقليدي ببضعة أسطر. ومع ذلك احتفظ بصداقات شخصية مع أصدقائه من ذلك الفريق، وبالذات بلال الحسن الذي كان يكثر التردد على مكتبه، حيث يشتد

النقاش بينهما أمامي في كل مرة، فأغادر بعدما يبدو الحديث لي على شيء من الإملال، إذ يجنح النقاش نحو مسائل تنظيمية داخلية (عائلية كما كنت أصفها لنفسي ساخرا) في الجبهة قبل أن تنشق. وكنت أتساءل: لماذا يأتي بلال ولماذا يرحب به غسان دائما، وهما يدركان مسبقا أن الخلاف سوف يدب بينهما، قبل أن يبرد فنجان القهوة أمام كل منهما؟ إنها رياضة السياسيين المفضلة كما يبدو، وهو التوتر الخاص بمن تتباعد السبل بين من هم في منزلة الإخوة.

حملت له مرة سلاما من زكريا تامر الذي زرته في دمشق، وأجريت معه مقابلة صحفية. ونقلت له ملاحظة من زكريا أذن لي بنقلها، قال فيها إن غسان كاتب موهوب وجيد، لكن بعض قصصه كانت تحتاج لكتابة ثانية من مؤلفها. فاجأته الملاحظة وغمغم لنفسه بحديث لم أسمعه. لم يكن يريد ليبدو سلبيا حيال صديقه. الآن أسأل نفسي: لماذا كان التجرؤ مني بنقل هذه الملاحظة وفيها ظلال من السلبية، أما كنت في غنى عن نقلها؟ إنه طيش الحداثة.. حداثة السن والتجربة.

يذكر فاروق غندور ابن خالة غسان في فيلم ماجد عبدالهادي، أن غسان لم يكن ينام الليل. في واقع الأمر أنه قبل العاشرة صباحا كل يوم، يكون قد التحق بعمله نشيطا مقداما وفي كامل يقظته. هذا ما لاحظته في مرات نادرة وصلت فيها إلى مكان العمل مبكرا. إذ كنت أشرع في عملي في الثانية عشرة أو الواحدة ظهرا بعد سهر الليالي طلبا للعلى. لم يوجه لي

مرة ملاحظة على ذلك، بيد أنه وبضحكة مكتومة لفت انتباهي وكنا في مطعم أم فريد في الطبقة الأرضية من المبنى، إلى أن الثورات والتحولات الكبرى والأحداث الهامة تقع في الأغلب الأعم قبل الظهر، كما قال. كانت ملاحظة بالغة الذكاء، فما حاجتي لأن استيقظ بعدئذ، وبعدما يكون العالم قد أعيد ترتيبه في غيبتي؟! وتنسجم الملاحظة مع طبيعة العمل ضمن مشروع ثوري تحرري، لكن دون حاجة منه لخطابة أو تبشير.

يشعر المرء بالتقدم المطرد في السن! وغسان رقميا بلغ الحادية والسبعين. على أن الموتى، وبالذات الشهداء لا يكبرون. لا يكبر غسان الذي غادر بيته ودنيانا، في أوج تفتحه وهو في السادسة والثلاثين ربيعا. وقد ملأ الدنيا وشغل الناس حيا وشهيدا، إذ تتوارث وتتعارف أجيال وشعوب ما بينها، عبر قراءة إبداعه دائم الإشعاع.

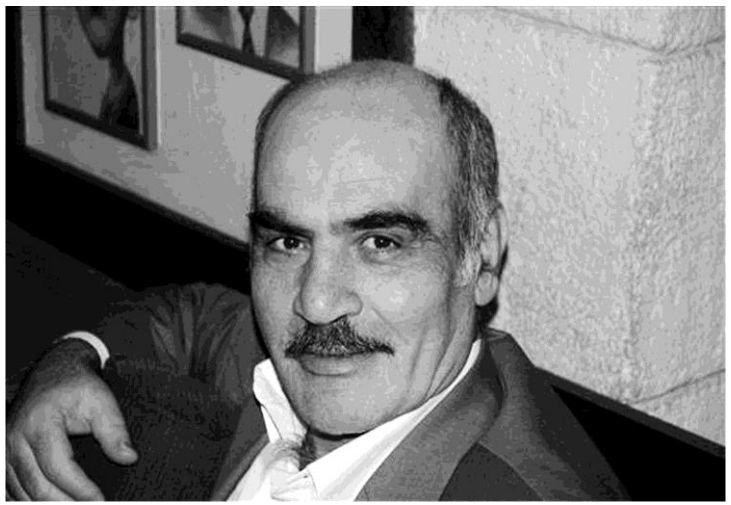

محمد العبدالله[1]..
الحياة لم تحتفل بشاعرها

بينما يُصنَّف محمد العبدالله شاعرا مُجيداً وأديباً مبدعاً وكاتباً موهوباً، فلقد كان يضيق بمهنة الأدب التي أدركته شاباً في أواسط عشرينياته في منتصف عقد سبعينيات القرن الماضي. فقد كان من ذلك الطراز الحيوي الذي يؤمن بأن الحياة أولاً، قبل التعبير عنها بالأدب والفنون عامةً. ويسهل على قارئه الوقوع على نزعة جامحة لديه لكسر أدبية الأدب ابتداءً من كسر الفصاحة، رغم ما يمتلكه من فصاحة غنية، ربما كي لا يذهب الوهم بالمتلقي إلى أن في الإبداع الأدبي والفني خلاصاً ما. وقبل ذلك كي لا ينسحر القارئ بالأدب انسحارا يغفل معه عن ما هو حي وحيوي، ابتداءً من الحواس والانفعالات والغرائز

(1) الشاعر اللبناني محمد العبدالله (1946-2016).
من أبرز إصداراته الشعرية: «رسائل الوحشة» (1979)، و«بعد ظهر نبيذ أحمر... بعد ظهر خطأ كبير» (شعر – قصص، 1981)، و«حبيبتي الدولة» (1990)، و«بعد قليل من الحب، بعد الحب بقليل» (1992)، و«قمر الثلج على النارنج» (1998)، «لحم السعادة» (2000)، «حال الحور» (2005)، «بلا هوادة» (2010)، «قصائد بيروت» (2010)، «البيجاما المقلمة» (قصص، 1996)، «الله معك سيدنا» (مسرحية نشرت في مجلة «الطريق» سنة 1996)، «كيفما اتفق» (نصوص ومقاربات نشرت في صحف عربية، 1998).

وتطلبات الجسد، ويغفل معه كذلك عن الانطفاء الذي يتربص بالكائنات.

النزعة الحسية لدى محمد العبدالله، شعراً ونثراً، تنهل من نزعة عدمية، قوامها أن الطعام والشراب وكل ما ينادي الحواس، هي الأشياء الأكثر موثوقية، هي المتع الصغيرة المؤكدة في عالم مفعم بالشكوك والتناقضات والزوغان الذهني ومختلف ضروب اللايقين. وبما أن المتع الصغيرة آنية، وسرعان ما يزول أثرها، فإن العبدالله يظل يجِدّ وراء المعنى، محاولاً إدراكه وتذوّقه عبثًا، وبدون ملودراما عاطفية تخفق فيها رايات فوز أو خذلان، بل بصياغة التجارب بلغة صريحة مقتصدة تتوجه إلى قارئ حاضر من زمانه، وليس إلى سديم.

لم يذهب العبدالله بعيداً في الحداثة المتمردة على ذاتها والمكتفية بذاتها (بعد موت المؤلف والقارئ والمعنى..)، ولا تطامن مع مواضعات جارية في الشعر والإبداع عمومًا، فقد ظل يحفر بحثًا عن حداثته الخاصة، وكأنما يبدأ في كل مرة من نقطة الصفر، وبغير تبشير بشيء، ولا بتسليع العدمية والاتّجار بها. فمظاهر الحياة تتجاور مع عناصر التبديد في شعره، الموت يراقص الحياة، والفصول الأربعة تجتمع تحت سقفه. إنها الحياة الخاصة بإبداعه التي تتجاور مع توالي الليل والنهار.

***

غياب العبدالله وحضوره المتواتران في العقدين الأخيرين، هما آية على هذا التوتر بين قطبي الاندفاع نحو الحياة، والأدبار عنها. والسخرية

التي تنزّ من كتاباته، هي واحدة من تجليات كسر أدبية الأدب، فوق صلتها بنزعة فلسفية تأملية تلتقط المفارقات والشقوق في أكثر الأشياء التي تبدو على جانب من التماسك والصلابة.

ومع أن العبدالله نسيج ذاته في الإبداع الشعري والنثري، فإن قارئه واجدٌ أصداءً من مدرسة لبنانية تتغنى بالطبيعة وجماليات المكان الطبيعي البكر، باستثناء أنه لا يؤدلج ذلك، ومحاذراً من أن يتورط في غنائية لا تفسح كبير مجال لتجليات المعنى. أما السرد في شعره فقريب من سرد شعراء مصريين كأمل دنقل، أو سوريين مثل محمد الماغوط. إنه شعر ابن بيئته، شعر عضوي ينهل من حياة بعينها، وقد يصح القول إنه شعر مفعم بنفحات ومكونات الحياة في الشام والشرق. ولو لم يفارقنا العبدالله لاتهمني بطريقته المُحبة المتهكّمة بأني أنعت شعره بالفولكلوري! علماً بأن شعره أبعد ما يكون عن الفولكلور، فكل شيء يتخلق على نحو جديد من كائنات وجماليات ومظاهر الحياة، ولا يستند في ذلك إلى أي مثالات أو مطلقات سابقة عليه.

ما أن برزت ظاهرة شعراء الجنوب (اللبناني) أواسط سبعينيات القرن الماضي، حتى ظهر اسم محمد العبدالله بين مجايليه شاعراً متفرداً، والحق أن بقية الشعراء من محمد علي شمس الدين وعباس بيضون إلى شوقي بزيع وحسن عبدالله وحمزة عبود، هم بدورهم شعراء متفردون، كل منهم ينطوي على فرادته الخاصة. كانت لمحمد حداثته الخاصة العضوية بالمعنى الحيوي لا البيولوجي بالطبع!

لطالما ضاق أكثر ما ضاق بالشعر الذي ينطلق من ارتسامات ذهنية ليس إلا، ليخاطب ذهن القارئ حصراً. فالشاعر الكائن في الحياة «يتعين» أن يكتب شعرا في الحياة ولها ومنها وإلى جوارها وبقوّتها. شعر ينبض ويتنفس ويلبط ويشمخ مثل الكائنات. ولم يتردد في الإتيان على ذكر الأطعمة والمشروبات والفواكه، باعتبارها من عطايا الحياة الثمينة، مع الرفع من شأن التذوق الحسي ومضاهاته بتذوق الأمور المعنوية. إنه أبيقوري حكيم بنسخة محدثة! على أنه يبدو لكاتب هذه الكلمات أن الحياة لم تُحب محمد بالقدر الذي أحبّها به، فكان عليه أن يعاكس قلبه قليلا، ولا يمحضها ذلك الحب كله.

الشاعر الصخاب الأكول الشروب نديم أصحابه وأنيسهم والمستأنس بهم، توفّر منذ البدء على حس رؤيوي، فقد افتتح ديوانه الأول «رسائل الوحشة» بمشهديات من مسرح شعري بعنوان «الفصل الأول من مصرع دون كيشوت»:

دون كيشوت يقاتل أشباحاً يدعوها الإمبريالية
دون كيشوت يقاتل في اليقظة وفي الأحلام
يستيقظ حين يكون الناس نيام

في عام 1979 كان الشاعر، وهو ابن بيئة اليسار، يرثي دونيكيشية اليسار، وقبل أن ينكسر هذا الاتجاه الراديكالي، وتتبدى أعطابه للرائين.

كان محمد العبدالله من السخرية والروح العابثة بمكان، بحيث يبدو له الموت لعبة مبهمة مغرية، مثلما هي الحياة سواء بسواء.

حين بلغني نبأ موته، هتفت في دخيلتي: لقد فعلها، فهو ملول، مجازف، ومولع بالتجاريب القصوى.

«أبالسة هادئون/ يسيرون خلف الجنازة/ يشيرون بأصابعهم نحوي/ ثم.. يميلون إلى بعضهم/ يهمسون كلاما/ ويبتسمون».

عسى أن لا يكون القارئ وكاتب هذه الكلمات من الأبالسة.

أما الإهداء الذي كتبته لي لديوانك «بعد قليل من الحب، بعد الحب بقليل» في عمّان 16 مايو 2005، فسأظل أعاود قراءته بين حين وآخر «نلتقي في الجنّة، حيث سيكون لدينا بعض الوقت..».

سأكون على الموعد هناك يا صديقي، إذا قادتني المشيئة إلى الجنة.

2016

فهرس المحتويات

على سبيل التقديم 7

إبراهيم أصلان.. غياب النبيل 11

أحمد الفقيه.. الراحل في خضم المعارك 15

إلياس فركوح.. حيوية كائن ثقافي 21

الغضب يليق بأمجد ناصر 27

أمين شنار.. الوجوديّ المؤمن 33

جدلية الحضور والغياب 36

«رفض».. قصيدة لم تُنشر للشاعر أمين شنار 41

تيسير سبول.. بطل من ذلك الزمان 45

تحية إلى خيري منصور 57

أكلته الصحافة 57

لا مراثيَ لخيري الجميل 61

رسمي أبو علي.. مبدع كرّمته المقاهي التي أحبها تحية وداع وقصة 71

من يموت أولاً 74

سعدي يوسف.. ابن الحياة وحليف المنافي 85
رسالة متأخرة إلى سعيد الكفراوي..... 91
صلاح حزيّن..شمس الابتسامة..... 97
غسان كنفاني.. حياة ممتلئة وسحر شخصي..... 103
محمد العبدالله الحياة لم تحتفل بشاعرها 115